الإسلام وجها لوجه فى الميدان خوفا على أرواحهم وأموالهم الّتى يرونها أغلى شيء فى هذا الوجود ينبغى المحافظة عليه . أمّا المؤمنون الصادقو الايمان ، وإن كانوا قد ابتلوا وزلزلوا زلزالا شديداً ، فإنّهم أيام الحصار ولياليه ، الصابرون المصابرون المرابطون لم تغفل لهم عين ، ولم يغمض لهم طرف ، ولم يقرلهم قرار ، ولم يتزعزع لهم إيمان ، ولم تضعف لهم قناة . ومع أن جيشهم قليل العدد والعدّة ، فإنهم منذ أن وقعت أعينهم للوهلة الأولى على جيوش الأحزاب ، تذكروا وعد الله تعالى لهم فى محكم كتابه ، وعلى لسان رسوله الكريم ، بأن العاقبة للمتقين . وتمثلوا الثمن الّذى ينبغى أن يبذله هؤلاء المتقون المجاهدون فى سبيل الله تعالى ، مقابل ثواب الله تعالى الجزيل لهم فى الدّنيا والآخرة . وقد أشارت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة إلى الثمن الّذى يدفعه المؤمنون عادة مقابل النصر الّذى وعدهم الله تعالى به . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرّسول والّذين آمنوا معه متى نصر الله ألاّ إن نصر الله قريب** ﴾ كما أشارت هذه الآية الكريمة من سورة النور إلى وعد الله تعالى المؤمنين العاملين للصالحات باستخلافهم فى الأرض وتمكين دين الإسلام فى الأرض وإبدالهم بالخوف أمنا . قال تعالى[2] : ﴿ **وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الّذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ إنّ كل هذه المعانى تمثلها أولئك المؤمنون المتقون ، وهم الّذين يزلزلون آنذاك زلزالا شديدا ، لأنهم يعلمون أن للنصر ثمنه فى الدّنيا والآخرة . أن يقتلوا أعداء الله تعالى ، وأن يقتلهم الأعداء ، وأن يدخلوا بإذن الله تعالى الجنة . أمّا الكافرون فإلى جهنّم وبئس المصير . وقد قال تعالى[3] : ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم . يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ .

---

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

(٢) سورة النور ٥٥ وانظر لباب النقول ص ١٦٠ .

(٣) سورة محمّد ٤ - ٧ .

وإذا كان الظّاهر فى العين أن الكفار أكثر عددا وعدّة ، فالحقيقة أنّ القوّة مع المؤمنين ، لأنّ الله تعالى ناصرهم وخاذل الكافرين . وقد قال تعالى[1] : ﴿ **ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم** ﴾.

وبفضل الله تعالى لم ينقص إيمان أولئك المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، رغم استمرار الحصار واشتداد البرد ، وعض الجوع ، وخذلان المنافقين ، وغدر يهود بنى قريظة . بل على العكس من ذلك ، ازداد إيمان هؤلاء المؤمنين المتقين . إنّ جرّيّ الحوادث فى غزوة الأحزاب يؤدّى مع عدم وجود الإيمان إلى انكسار الرّوح المعنوية لدى المؤمنين . ولكن رحمة الله تعالى وفضله أدّيا إلى أن تسير الشعلة الإيمانية فى طريقها الفريد بأن تزداد الشعلة اتقادا رغم العواصف الهوج الّتى تحرص على إطفائها . إنّ الإيمان قد ازداد ، وإنّ التسليم لقضاء الله تعالى وقدره قد تمّ . جاء فى السّيرة[2] : ﴿ وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليما ﴾ ، أى صبرا على البلاء ، وتسليما للقضاء ، وتصديقا للحقّ ، لما كان وعدهم الله تعالى ورسوله ﷺ أليس للنصر ثمنه ؟ ومن ذلك أن تقدم الأرواح والأموال رخيصة فى سبيل الله تعالى . إنّ المؤمنين بفضل الله تعالى مستعدون لكلّ ذلك ولم تتخل رحمة الله تعالى وفضله عن هؤلاء المؤمنين ، فبدّل عزّ وجلّ خوفهم أمنا ، وذلهم عزّا ، وهزيمتهم نصرا . لقد صدق الله تعالى المؤمنين المجاهدين فى سبيله الّذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى . قال عز من قائل : ﴿ **ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلاّ إيماناً وتسليما** ﴾.

إنّا فى حقيقة الأمر بصدد درس بليغ فى عمل القوة الإيمانية العجيب ، الّذى يحتار فى تفسيره كلّ عقل لا يستند فى تدبّره إلى هذا الإيمان . وهذا كله معناه أنّ هؤلاء المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، اتخذوا من المصطفى ﷺ أسوتهم الحسنة فى الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله تعالى والاستسلام لقضاء الله تعالى وقدره . إنّ كلّ ما يحدث للمؤمنين إنّما هو بقضاء الله تعالى وقدره ، فلا يخفى على الله تعالى شىء فى الأرض ولا فى السماء . وليس ثمّة نهاية بإذن الله

---

(١) سورة محمّد ١١ .

(٢) السّيرة النبوية لابن هشام ٣٦٧/٣ (عبد الحميد) .

تعالى للابتلاء الّذى هم فيه والزلزال العظيم الذى يعيشونه إلاّ إحدى الحسنيين اللتين يتمنى المؤمنون المتقون المجاهدون فى سبيل الله تعالى،النصر أو الشهادة . فلا مكان إذن فى نفوس هؤلاء المؤمنين المتقين وفى قلوبهم وصدروهم إلاّ للإيمان بقضاء الله تعالى والتسليم لقدره . ولم يكن ما قال المؤمنون فورة إيمانية ما لبثت أن هدأت ، ولا شعلة يقينية ما لبثت أن خبت . إنّهم بفضل الله تعالى قد قرنوا القول بالفعل . وبذلك أعطوا الدّليل العملى على تأسيهم بالمصطفى ﷺ وامتثالهم لأوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى ﷺ .

وهذه الآية الكريمة الّتى يبدأ بها الحديث عن اتخاذ المؤمنين المتقين رسول الله تعالى أسوة حسنة ، تتحدّث عن قمّة من قمم الإيمان والتأسى . ومن أهم مظاهر ذلك الإيمان والتأسى القول على لسانهم : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ولا نملك فى المقابل إلاّ أن نتذكر ابتداء أولى الآيات الكريمات فى المنافقين بالحديث عن قمة من قمم النفاق . ومن أهمّ مظاهر ذلك النفاق القول على لسانهم : ﴿ **ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا** ﴾.

وإنّ من هؤلاء المؤمنين المتقين من استشهد ومنهم من ينتظر الاستشهاد وما بدلوا تبديلا . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التالية . قال تعالى : ﴿**من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ والملاحظ أن الحديث لازال عن هذه القمة الإيمانية الفريدة،وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد أشارت إلى القول الّذى جرى على ألسنة هؤلاء المتقين ، فإنّ هذه الآية الكريمة تتحدّث عن فعلهم الموافق لذلك القول . إنّ المؤمنين الّذين أمكن لهم بتوفيق الله تعالى أن يجمعوا إلى القول المخلص العمل الصّادق ، طائفة بعينها كأولئك الّذين ثبتوا فى معركة أحد مع الرّسول الأسوة ، بعد أن فرّت عامة المسلمين . ومن هؤلاء الذين صدقوا عاهدوا الله تعالى عليه من أكرمه الله تعالى بالشهادة ومنهم من ينتظر بإذن الله تعالى دوره فى صفوف الشهداء ، يقول ابن هشام[1] : « ومنهم من ينتظر أى ما وعد الله به من نصره والشهادة على ما مضى عليه أصحابه » دون أن يقل استشهاد إخوانهم من عزيمتهم ، أو يضعف من حرارة إيمانهم،وما بدّلوا تبديلا :

---

(١) السّيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٦٩ .

أى ما شكوا وما تردّدوا فى دينهم ، وما استبدلوا به غيره[1] بل على العكس من كلّ ذلك . كانوا لهم ، بمنزلة الطاقة المتجددة القوّة المستمرة النماء المتدفقة العطاء . لأنهم نالوا أكبر منزلة يمكن أن ينالها بعد الصّديقين من أتباع الرسل والأنبياء منعم عليهم ومرضى عنهم . لكلّ ذلك كنّا بعد تعميم الآية الكريمة السّابقة الّتى شملت كلّ المؤمنين الّذين ابتلوا وزلزلوا زلزالا شديداً ، بصدد تخصيص وتقييد ، بل تخصيصين وتقييدين . فمن هؤلاء المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه . وانظر إلى لفظة رجال الّتى تنتقيها الآية الكريمة بالذات ، لأنّها تتضمن صفة من أهمّ صفات المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى المتوكلين عليه جلّ وعلا . الصّابرين المرابطين . إنّها صفة الرّجولة والفحولة الضرورية ساعة القتال ، والكرّ والفرّ والنزال . وانظر إلى صفة الصّدق الّتى يتحلى بها هؤلاء المؤمنين فى أفعالهم الموافقة لأقوالهم دليلا على الرّجولة الفعلية لهؤلاء المؤمنين فى أقوالهم وأفعالهم .

إنّ المنافقين كانوا كاذبين فى كلّ أقوالهم ، بما فى ذلك عهد الله تعالى الّذى قطعوا على أنفسهم من قبل بألاّ يولوا الأدبار . وقد قال تعالى : ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار** ﴾ وقد وافق فعل المنافقين الكاذب قولهم الكاذب . إنّ هذا هو التخصيص الأوّل أو التقييد الأوّل المتمثل فى الصّدق وموافقة الفعل للقول . ثمّ جاء بعد ذلك التخصيص الثانى أو التقييد الثّانى الّذى يتحدث عن اتخاذ الله تعالى شهداء عاجلاً أو آجلاً ، من بين هؤلاء الرّجال الصّادقين . لقد كان هؤلاء الصّادقون فى أقوالهم وأفعالهم حريصين على أن يستشهدوا فى سبيل الله تعالى . ومِنْ هؤلاء من أكرمهم الله تعالى بالشّهادة على الفور . ومنهم من أكرمهم بها على التّراخى . فلنتأمل الطريقة الّتى تعبّر بها الآية الكريمة عن المدى البعيد لحرص هؤلاء الصّادقين على بذل أرواحهم رخيصة فى سبيل الله تعالى . وهذا يقتضى منا أن نتدبر مليا لفظة نحب .

إنّ للفظة « نحب » معنيين اثنين يتجاذبهما سياق الآية الكريمة . النّحب بمعنى الموت[2] أو الأجل[3] والنّحب بمعنى النّذر[4] وبتدبر القول : ﴿ فمنهم من قضى

---

(١) السّيرة النبوية لابن هشام ٢٦٩/٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٦/٣ واللسان نحب .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٧٥/٣ واللسان نحب .
(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٦/٣ اللسان نحب .

نحبه ﴾ من هذه الزّاوية ومن زاوية مجيء القول فى صدر الآية الكريمة كلّه : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ نتبين عجباً لأنّا نتبين فى هذا القول : فمنهم من قضى نحبه عدولا عن اللفظ « نذر » الّذى يدلّ على أحد المعنيين الرّئيسيين فقط للنّحب وهو النذر . فلا يجيء مثلاً القول : فمنهم من قضى نذره أو وفى بعهده ونذره ، لأنّ مثل هذا التعبير يدلّ على الإخلاص فى الجهاد فقط ، بينما المطلوب بالإضافة إلى ذلك تبيين حرص هؤلاء الصّادقين على الشهادة واستماتتهم فى سبيلها . فهذا القول : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه** ﴾ نتبين فيه من ناحية العلاقة الوثيقة بين عهد القول فى قوله تعالى : ﴿ **صدقوا ماعاهدوا الله عليه** ﴾ وبين العهد الآخر المترجم عهد القول إلى فعل ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ كما نتبين فيه من ناحية أخرى أن القتل فى سبيل الله تعالى الّذى كان من نصيب هؤلاء الصّادقين والموت فى سبيله جلّ وعلا كان أسمى أهداف هؤلاء المجاهدين فى سبيل الله تعالى الحريصين على بلوغ الشّهادة ، بمثابة النّذر ، وعهد الله تعالى الّذى قطعوه على أنفسهم فعليهم الوفاء به . ولا يتحقق ذلك الوفاء إلاّ بالاستشهاد فى سبيل الله تعالى أسمى أمانيهم .

إنّ هذا التعبير : ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ ينفرد بكونه يدلّ على أنّ الشهادة التى حصل عليها الصّادقون لم تكن عرضا ولا مصادفة ولا اتّفاقا ، إنّما كانت غرضا وهدفا وغاية . جاء فى لسان العرب[1] فى معنى الجزئية الكريمة : وقيل : معناه قتلوا فى سبيل الله فأدركوا ما تمنوا .. وقيل فمنهم من قضى نحبه أي قضى نذره كأنه ألزم نفسه أن يموت فوفى به . وفى الحديث : طلحة ممّن قضى نحبه . النحب النّذر كأنه ألزم نفسه أن يصدق الأعداء فى الحرب فوفى به ولم يفسخ . وقيل هو من النحب الموت ، كأنّه يلزم نفسه أن يقاتل حتى يموت)ولقد ثبت طلحة مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده فقال رسول الله ﷺ : أوجب طلحة[2] وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النّفاق ومرض القلوب[3] ومعنى أوجب طلحة أى أوجب الجنة[4] .

---

(١) « نحب » .
(٢) الكشاف ٥٣٥/٢ والبحر المحيط ٢٢٣/٧ .
(٣) الكشاف ٥٣٥/٢ والبحر المحيط ٢٢٣/٧ .
(٤) تفسير القرطبى ٥٢٤١ .

وبما أنّهم قد صدقوا الله تعالى فى طلب الشّهادة فقد صدقهم الله تعالى فأكرمهم بها كما أكرم عزّ وجلّ بها بعد ذلك الّذين ينتظرون دورهم فى صف الشّهداء الأبرار . ﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ إنّ قتل الشّهداء الصّادقين مُغْر لإخوانهم الصّادقين أمثالهم . إنّهم لينتظرون دروهم « نذر رجال من الصحابة أنّهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفّان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وغيرهم رضى الله عنهم . فمنهم من قضى نحبه . يعنى حمزة ومصعبا . ومنهم من ينتظر يعنى عثمان وطلحة . وفى الحديث : من أحبّ أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة »[1] .

إنّ هؤلاء الصّادقين لا ينتظرون دورهم فى أن يعطوا نصيبهم من الغنائم أو المناصب أو كنوز الأرض أو الخيل المسوّمة والأنعام والحرث وغير ذلك من متاع الدّنيا الزّائل ، إنّما ينتظرون ما انتظر ذلك الأعرابى من الاستشهاد فى سبيل الله تعالى وكان صادقا فى رغبته وانتظاره فأكرمه الله تعالى بالشهادة . عن شدّاد بن الهاد رضى الله عنه أنّ رجلا من الأعراب جاء فآمن بالنبى ﷺ ثم قال : أهاجر معك . فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه . فكانت غزاة غنم فيها النبى ﷺ شيئاً فقسم وقسم له . فقال : ما هذا ؟ فقال : قسمته لك . فقال : ما على هذا اتبعتك ولكنى اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا وأشار بيده إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنّة .قال : إن تصدق الله يصدقك . فلبثوا قليلا ثم نهضوا فى قتال العدوّ فأتى به النبى ﷺ محمولا قد أصابه سهم حيث أشار . فقال النبى ﷺ : أهو هو ؟ قالوا : نعم . قال : صدق الله فصدقه . ثمّ كفن فى جبة النبى ﷺ ثمّ قدّمه فصلى عليه فكان ممّا ظهر من صلاته : اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك فقتل شهيدا وأنا شهيد على ذلك . أخرجه النّسائى[2] .

وإنّ التذييل الّذى ختمت به الآية الكريمة : ﴿ وما بدلوا تبديلا ﴾ ينسحب على كلّ المؤمنين الّذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه بفريقيهم ، من قضى نحبه ومن

---

(١) الكشاف ٢/٥٣٥ .

(٢) رسالة الجهاد حسن االيا ص ٨٦ .

ينتظر . إنّ الأوّلين استمروا فى صدقهم القولى والفعلى حتى قسم الله تعالى لهم الشّهادة سريعا . وإن الآخرين ينسجون على منوالهم ويسيرون على طريقهم الموصل بإذن الله تعالى إلى النتيجة الحميدة ذاتها . وبما أن فترة الفريق الثّانى الزّمنية أطول ، فمن الجائز بناء على ذلك أن يقال : إنّ ارتباط التذييل بالفريق الثّانى أكثر ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا** ﴾ لأنّ الفترة الزّمنية حينما تكون أطول ، يكون احتمال طروء التغير والتبدل على الأفكار والمبادىء أكثر ورودا . إنّ الآية الكريمة تنفى عن المؤمنين الصّادقين أجمعين أدنى صفات التقلب والتلوّن ، وتثبت لهم درجة عجيبة وفريدة من الثبات على المبادىء والمثل . وكيف لا تكون تلك صفة أولئك المؤمنين المتقين وهم الّذين وفقهم الله تعالى فعرفوا معنى العهد الّذى أخذوه لله تعالى على أنفسهم . قال تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا** ﴾.

وروى أنّ هذه الآية الكريمة نزلت فى أنس بن النضر شهيد أحد وفى أشباهه من الشهداء السعداء . عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : غاب عمى أنس ابن النضر رضى الله عنه عن قتال بدر فقال : يا رسول الله ، غبت عن أوّل قتال قاتلت المشركين . لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليُرَيَنَّ الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنّى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعنى أصحابه – وأبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء – يعنى المشركين – ثمّ تقدم فاستقبله سعد ابن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة وربِّ النضر ، إنّى أجد ريحها من دون أحد . فقال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعا[1] وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح أو رمية بسهم . ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون . فما عرفه أحد إلاّ أخته ببنانه[2] : قال أنس كنا نرى – أو نظنّ – أنّ هذه الآية الكريمة نزلت فيه وفى أشباهه : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ . متفق عليه[3] .

---

(١) بضعا بكسر الموحدة وسكون الضاد المعجمة وبالمهملة : يستعمل فى الثلاثة والتسعة وما بينهما .
(٢) البنان : أطراف الأصابع .
(٣) رياض الصالحين ص ٤٧١ .

ويبدو أنّ هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب : ﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا ﴾ كانت بمثابة النشيد الحربى الذى يردّده المؤمنون الصّادقون فى كلّ زمان ومكان ، للدرجة ألّتى لم تقم معها حاجة لتدوينها من قبلهم على عهد المصطفى ﷺ ، تماماً كما لم تقم الحاجة لتدوين الآيتين الكريمتين الأخيرتين من سورة التّوبة ، بسبب حفظ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لهما عن ظهر قلب[1] قال تعالى[2] : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم.فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ وكما لم يحتج الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه إلى أن يدون الفاتحة فى مصحفه ، اكتفاءاً بحفظه وحفظ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لها واطمئنانهم لذلك[3] كلّف أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فى خلافته زيد بن ثابت بأن يجمع القرآن الكريم لأنّ زيد بن ثابت شابٌّ غير متهم ، كما صرح بذلك أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، ويحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب،وأحد كتبة الوحى ، فقد كان قارئا كاتبا ، وصاحب العرضة الأخيرة للقرآن الكريم على المصطفى ﷺ . ووضع زيد رضى الله تعالى عنه منهجا علميًا دقيقا لجمع القرآن الكريم التزمه بصرامة . ومن ذلك أنّه لم يكن يكتفى بالصّدر وحده أى بالحفظ ، ولا بالسّطر وحده أى بالكتابة . وإنّما باتفاق الصّدر والسّطر . وإنّ على من جاء زيدا رضى الله تعالى عنه بشى مكتوب من القرآن الكريم ، عليه أن يحضر شاهدين يشهدان بأنّ ذلك المكتوب كتب بين يدىّ رسول الله ﷺ[4] ولم يكن من المتيسر تحقق شرط الشّاهدين بشأن كتابة هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها من سورة الأحزاب ، بسبب حفظ المسلمين قاطبة لها ، وترديدهم إيّاها ليلا ونهارا عن ظهر قلب،ولكن شاءت العناية الإلهية أن توجد هذه الآية مكتوبة عند خزيمة بن الفاكه الأوسى الأنصارى الّذى شاءت العناية الإلهية أن يجعل المصطفى ﷺ ، الّذى لا ينطق عن

---

(١)انظر مباحث فى علوم القرآن د . صبحى الصّالح ص ٧٥ والاتقان ٢٠٣/١، ٢٠٦ ، ٢٠٩ .
(٢) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٩/١ .
(٤) انظر الإتقان ٢٠٦/١ .

الهوى ، شهادة هذا الصحابى الجليل بشهادة رجلين من المؤمنين[1] جاء فى صحيح البخارى[2] أنّ زيد بن ثابت قال : لمّا نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلاّ مع خزيمة الأنصارى الّذى جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين : من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه قال تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا** ﴾ .

إنّ ذروة سنام الإيمان الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وقد اختلف تماماً موقف المؤمنين من الدّعوة إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى عن موقف المنافقين لدرجة التقابل فى الصّفات . المؤمنون صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقالوا : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ أمّا المنافقون فإنّهم لم يستحيوا من الفرار من جبهة القتال وقالوا : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ وإنّ الجهاد فى سبيل الله تعالى ، مظهر من مظاهر ابتلاء الله تعالى لعباده ، كى يميز الخبيث من الطّيب ، وحتّى يعلم الله تعالى علم ظهور ، المجاهدين والصّابرين ويبلو أخبار عباده ، رغم علمه عزّ وجلّ المسبق بما سيفعل عباده . إنّه جلّ وعلا لا يؤاخذ عباده بعلمه ما سيعملون ، ولكنّه يؤاخذهم بعملهم .

وها نحن أولا ، أمام آية كريمة ، تشير إلى هذا العدل الإلهى . قال تعالى : ﴿ **ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إنّ الله كان غفورا رحيما** ﴾ .

ونحن نتبين شيئاً من وجه الشّبه فى الصّياغة ، بين هذه الآية الكريمة ، وبين الآية الكريمة الثّامنة . قال تعالى : ﴿ **ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذابا أليما** ﴾ بل إنّا لنتبين أنّ بين الآيتين الكريمتين تكاملاً في الصّياغة. فإن ماحذف فى إحدى الآيتين الكريمتين ، يصح أن يوجد هو أو أن يوجد الدّليل عليه أو الإشارة إليه فى الآية الكريمة الأخرى . وإنّ كلاً من الآيتين الكريمتين لتبدأ باللام الّتى قال

---

(١)انظر ترجمته فى الإصابة لابن حجر ٤٢٥/١ خزيمة بن ثابت بن الفاكه

(٢) ١٤٦/٦ .

عنها أبو حيّان فى البحر المحيط[1] : واللام فى ليجزى ، قيل : لام الصّيرورة . وقيل : لام التّعليل . ويتعلق بقوله : وما بدلوا تبديلا .

وبتدبرنا للآيتين الكريمتين نستطيع أن نستدل بالموجود فى إحداهما على المحذوف كما قلنا . فما الّذى يلاحظ ابتداءً على الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ؟ الّذى يلاحظ أنّها ابتدأت بالثّواب أو الجزاء . ومعروف أنّ الجزاء إنّما يكون بعد الحساب الّذى عبّر عنه فى الآية الكريمة السّابقة بالسّؤال . ﴿ **ليسأل الصّادقين عن صدقهم** ﴾ والمعنى هنا أنّ كلاً من الصّادقين والمنافقين يسألون ثمّ يجازون وفق أعمالهم . وما هى اللفظة الّتى استعملتها الآية الكريمة دليلاً على كلّ من الفريقين ؟ إنّها اللفظة المتضمنة لأهمّ صفة لكل فريق . فهى إذن اللفظة الّتى يقتضيها السّياق . لقد عبّر عن المؤمنين بالصّادقين . بينما استعمل فى حقّ المنافقين صريح اللفظ والخاصّ بهم . فلماذا استعمل لفظ الصّادقين فى حقّ المؤمنين ؟ لأنّ الصّدق أهم صفة للمؤمنين أبرزها السّياق ، وبخاصّة فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾. أمّا المنافقون فقد استعملت هذه الصفة فى حقهم لأنّها أبلغ صفة فى حقهم ، وأسوأ صفة فى حقهم .

أما وقد وقفنا على خبث طوية هؤلاء المنافقين ، على نحو ما بيّنت الآيات الكريمات ، فإنّا بوقوفنا على الأصل الّذى اشتقت منه لفظة نفاق والصّفة الّتى روعيت فى انتقاء هذا اللفظ بالّذات ، يتبين أنّ هذه الصفة هى أبرز صفات هذا الفريق من النّاس مقابل صفة الصّدق الّتى يتسم بها المؤمنون المتقون المجاهدون فى سبيل الله تعالى . إنّ المنافق اسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه وأسرّوا غير ما أعلنوه . وكان الأصل من نافقاء اليربوع جاء فى القاموس المحيط[2] والنافقاء والنفقة كَهُمزَة، إحدى جِحَرَةِ اليربوع يكتمها ويظهر غيرها . فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النّافقاء برأسه فانتفق لقد جمعت الآية الكريمة الثامنة بين الصّادقين والكافرين . قال تعالى ﴿ **ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً** ﴾ والكفر أنواع . وينطبق على كفار مكّة وعلى كفّار أهل الكتاب ، أحد

---

(١) ٢٢٣/٧

(٢) « نفق »

أنواعه ، كما ينطبق على المنافقين أحد أنواعه ، وحينما تنصّ سورة النّساء على كون المنافقين فى الدّرك الأسفل من النّار وذلك فى قوله تعالى[1] : ﴿ **إن المنافقين فى الدّرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾ وحينما تجمع السّورة الكريمة فى نسق بين المنافقين والكافرين فى جهنم ، بل تقدم المنافقين ، وذلك فى قوله تعالى[2] : ﴿ **إنّ الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنّم جميعاً** ﴾ ندرك يقينا أنّ أسوأ الصّفات الّتى يمكن أن يبتلى بها عبدٌ من عباد الله تعالى هى صفة النّفاق . وبهذا يتبين أنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ، فى حديثها عن الفريقين المتقابلين فى الصّفات ، تشير إليهما من زاوية أبرز الصّفات الّتى عُنِىَ السّياق بإخراجها . وكانت صفة الصّدق هى البارزة فى حقّ المؤمنين . ولم يكن للمنافقين من صفة أبرز من الصّفة الّتى اشتق منها اسمهم . قال تعالى : ﴿ **ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفورا رحيما** ﴾.

إنّ الآية الكريمة الثّامنة السّابقة ، إذا كانت قد أشارت إلى السّؤال المحذوف فى هذه الآية الكريمة ، فقد أشارت إلى ما أعدّ الله تعالى للكافرين . ويفهم منها كذلك ما أعدّ الله تعالى للمؤمنين وللمنافقين ، ممّا لم تصرّح به الآية الكريمة . ولكنّ النّصّ على الجزاء المحذوف فى الآية الثّامنة قد أوحى به .

وإنّ الآية الكريمة الثّامنة ، إذا كانت قد نصّت على سؤال الصّادقين واكتفت به ، ونصّت على ما أعدّ للكافرين من عذاب أليم واكتفت به ، ممّا فهم منه ضمنا تحقّق الشى ذاته بشأن الفريق الآخر ، لأنّ المذكور فى حقّ فريق يدل على المحذوف فى حقّ الفريق الآخر ، فإنّ شيئاً كهذا يقال عن الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . لقد نصّ على الجزاء فى حقّ الصّادقين بسبب صدقهم . ﴿ ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ﴾ ويلاحظ مجيء لفظ الجلالة بصريح اللفظ فى الآية الكريمة ، بينما لم يذكر فى الآية الكريمة الثّامنة ، لأنّ فى هذه الآية الكريمة مجالاً فسيحا لمغفرة الله تعالى ورحمته ، بينما سكت عن نوع الجزاء . ومعروف أنّه الجنة التى فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر . وفى المقابل نصّ على عذاب المنافقين . وبما أن رحمة الله تعالى قد سبقت غضبه ومغفرته قد سبقت عذابه ، وقد لاحظنا

---

(١) سورة النساء ١٤٥ .

(٢) سورة النساء ١٤٠ .

مجيء لفظ الجلالة فى صدر الآية الكريمة رغم إمكان حذفه،وبما أنّ من مظاهر رحمة الله تعالى ومغفرته أن يستفيد المنافقون من باب التوبة إلى الله تعالى المفتوح دائماً على مصراعيه ، فقد أردف النصّ على عذاب الله تعالى للمنافقين بشيئين ، بتقييده بالمشيئة ، وبمنعه لو تاب المنافقون إلى الله تعالى توبة نصوحا وآمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ **ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . إنّ الله كان غفورا رحيما** ﴾ إنّ الجزاء يطلق على الثّواب والعقاب . وقد استعمل فى القول : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ فى معنى الرّحمة ، لأنّها تقابل العذاب الّذى صرّح به والّذى هو جزاء للمنافقين .

وإنّ ذكر المشيئة بشأن عذاب المنافقين : ﴿ ويعذب المنافقين إن شاء ﴾ وفى ضوء دليل المذكور على المحذوف ، يفهم منه فى حقّ المؤمنين المتقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى الصّادقين ، أنّ جزاءهم المتمثّل فى ثواب الله تعالى ، إنّما تمّ بمشيئته جل وعلا . والحقيقة أنّنا بصدد درس قرآنى بليغ ، مفاده أنّ دخول عباد الله تعالى الصالحين الجنّة إنّما هو بمشيئته جلّ وعلا الّتى قبلت تلك الأعمال الصّالحة لتحقق الشّرط الضرورى بشأنها ، وهو كونها أعمالا صالحة ، أريد بها وجه الله تعالى ، بمشيئته جلّ وعلا الّتى وفقت عباد الله تعالى المخلصين للقيام بتلك الأعمال الصّالحة إيمانهم عليها .

وإنّ تعليق العذاب بمشيئة الله تعالى ، الّذى فهم منه أنّ باب رحمة الله تعالى مفتوح على مصراعيه دائماً وأبدا لمن تاب وآمن وعمل عملا صالحاً ثمّ اهتدى ، فتح الطّريق للتقييد الثانى المتعلق بهذه التّوبة ذاتها الّتى لوّح بها التقييد الأوّل والّتى تحوّلت فى التقييد الثّانى إلى واقع بفضل الله تعالى وكرمه وغفرانه ورحمته . قال تعالى : ﴿ **ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم** ﴾ ويلاحظ ارتباط التقييدين ببعضهما وكأنهما وجهان لشيء واحد هو رحمة الله تعالى الّتى وسعت كل شيء،إنّ هذه الرّحمة فى تقييدها الأوّل ربطت العذاب بالمشيئة. وإن هذه الرّحمة فى تقييدها الثّانى بينت الحكمة فى تلك المشيئة بأن ذكرت العلّة فى احتمال انصراف العذاب عن طريق التّوبة ، وإنّما قلنا إنّ التقييدين مرتبطان ببعضهما وكأنهما وجهان لشيء واحد لأنّ هذا التقييد الثّانى يمثّل أولى خطوات

التّوفيق من الله تعالى لهؤلاء الّذين كانوا منافقين ، بأن تابوا وقبل الله تعالى توبتهم .

وكى يتبين ما قلنا من قرب التقييدين من بعضهما ، فى الإمكان أن نتدبّر تعبير الآية الكريمة عن الصّادقين ، إنّها تقفز إلى الجزاء العظيم من الله تعالى ، لأنّ هؤلاء الصّادقين ، وفّقهم الله تعالى لبذل أرواحهم رخيصة فى سبيله جلّ وعلا . فكان لهم مقابل منتهى ما أمكن لهم تقديمه الجزاء الّذى يسبقه الكثير من الخطوات الطّيّبة . أمّا المنافقون فإنهم فى أوّل العودة إلى الصراط القويم . لذا كان التّعبير عن التّقييد الثّانى بمثابة البديل عن التقييد الأوّل . إنّه قبول توبتهم بدلا من تعذيبهم . وإنّ ذكر المشيئة بعد ذكر العذاب يعنى أنّ المشيئة منسحبة على التوبة ، فإن شاء الله تعالى عذّبهم ، وإن شاء قبل توبتهم النّصوح . وبعد تفضّل الله تعالى بقبول توبتهم ، ينتظرهم الكثير والكثير من الجدّ والاجتهاد فى عمل الصّالحات الّتى يريدون بها وجه الله تعالى . ومن الأدلّة على كون هؤلاء ينتظرهم الكثير من المجهود ، هو أنّ البديل عن العذاب ليس الرّحمة مثلاً وليس مطلق الجزاء الّذى استعمل فى حقّ الصّادقين ، لأنّ كلاً منهما يمثّل مرحلة رفيعة ، يسبقها الكثير من المراحل ، ابتداءً بالتّوبة النصوح » قال ابن عطية : تعذيب المنافقين ثمرته إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم والتوبة موازية لتلك الإقامة . وثمرة التوبة تركهم دون عذاب . فهما درجتان ، إقامة على نفاق ، أو توبة منه . وعنهما ثمرتان ، تعذيب أو رحمة » . فذكر تعالى على جهة الإيجاز واحدة من هاتين ،وواحدة من هاتين . ودلّ ما ذكر على ما ترك ذكره .. فحذف سبب التّعذيب وأثبت المسبّب وهو التعذيب . وأثبت سبب الرّحمة والغفران وحذف المسبّب وهو الرّحمة والغفران[1] .

وإذا كان هذا القول : ﴿ ويعذّب المنافقين إن شاء ﴾ يشتمّ منه رحمة الله تعالى بسبب تقييد العذاب بالمشيئة . وإذا كان هذا القول : ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ يشتمّ منه قدر أكبر من رحمة الله تعالى البرّ الرّحيم ، لأنه بمثابة إرشاد هؤلاء المنافقين إلى الطّريق الأقوم الّذى ينبغى أن يسلكوه، وبمثابة التّفاؤل بعودة هؤلاء المنافقين إلى جادّة الصّواب ، فإنّ التذييل فى الآية الكريمة : ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ بمثابة الإعلان الصّريح لهذه الرّحمة وتلك المغفرة ، وبمثابة الدّرجة الثّالثة الّتى يفصح معها

---

(١) البحر المحيط ٢٢٣/٧ .

عن الرّحمة بعد التلميح بها فى الدّرجة الأولى والتلويح بها فى الدّرجة الثانية .

ومعروف أنّ هذه المرتبة العالية الرّفيعة من رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيء ليست وقفا على هؤلاء التّائبين توبة نصوحا العاملين للصالحات من المنافقين سابقا . إنّما يشمل كلّ عباد الله تعالى ، ومنهم بطبيعة الحال الصّادقون الّذين أثنت عليهم الآيات الكريمات.إنّ المصطفى ﷺ ، رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة إذا كان يصرّح بأنّه لا يدخل الجنّة حتى يتغمده الله تعالى برحمته ، فكيف بغير أشرف خلق الله تعالى من عباده جلّ وعلا الصّالحين . إنّ افتقارهم إلى رحمة الله تعالى البّر الرّحيم أشدّ ولا شك.وبهذا يتبين أنّ هذا التذييل : ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ يعنى أنّ مغفرة الله تعالى قد سبقت عذابه ، وأنّ رحمته قد سبقت غضبه ، وأنّها قد وسعت كلّ شيء . وانظر إلى الفعل النّاقص « كان » الّذى ينسحب على كلّ الأزمنة كما هو معروف . وكأنّه يدلّ على الأزل أو الأبد . نسأل الله تعالى أن يتغمدنا جميعا بواسع رحمته ومغفرته وجميل كرمه وفضله إنّه سميعٌ مجيب وعلى كلّ شيء قدير . قال عزّ من قائل : ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلاّ إيماناً وتسليما . من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ، إنّ الله كان غفوراً رحيما** ﴾ .

(٨)

« وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم »
الآية ٢٥

قال تعالى : ﴿ وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويّاً عزيزاً ﴾ .

إنّ غزوة الخندق أو الأحزاب ، وهى كما عرفنا من أشق الغزوات الّتى خاضها المسلمون بقيادة المصطفى ﷺ إن لم تكن أشقّها ، عبارة عن سلسلة من أمور عجيبة ، سارت كما أرادت لها العناية الإلهية ، حتّى انتهت بنصر الله تعالى وحده لا شريك له ، للمسلمين وهم أذلة ، على جيوش الكفر والطغيان بقيادة أبى سفيان وعيينة بن بدر[1] لقد وصفت الآية الكريمة قريشاً وأحابيشها وغطفان وأحلافها بالكفر ﴿ وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾ لأنّهم كفروا نعم الله تعالى وفى مقدمتها رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، الّذى أنزل عليه الكتاب المبين ، القرآن العربى ، فأولى بهم وهم أرباب الفصاحة أن يتدبّروا القرآن الكريم ،ولكن على قلوب القوم أقفالها . وتبدو رحمة الله تعالى الّتى وسعت كل شىء من القول : ﴿ وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ فى صورتين رئيسيتين : نصر الله تعالى للمؤمنين . وعدم استئصال الكافرين بالرّيح الّتى أرسلها الله تعالى على الكافرين . وربّما وجدنا البيان الشافى لذلك فى قوله ﷺ : نُصِرْت بالصّبا وأهلكت عاد بالدّبور . وتظلّ ريح الصّبا فى عُرْف العرب ومن تجاربهم حاملة معها صنوفا من الخير . فالله سبحانه وتعالى هو الّذى ردّ جيوش الأحزاب المعتدّة بقوّتها ، والّتى كانت واثقة من أنّها ستكمل فى هذه الغزوة

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٢٤٢ .

ما بدأته فى غزوة أحد ولم تتمكن من إكماله . ولكنّ الله تعالى هو القويّ العزيز الّذى أخذ على نفسه العهد بأن ينصر المؤمنين ويحقق لجنده الغلبة . وكان وسيلة تحقيق ذلك ما أرسله جلّ وعلا من ريح وجنود ، حملت الكافرين على أن يعودوا أدراجهم خائبين خاسرين .ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلاّ الله وحده. صدق وعده . ونصر عبده . وأعزّ جنده . وهزم الأحزاب وحده . فلا شيء بعده ، أخرجاه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه[1] وفى الصّحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى رضى اللهعنه قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب : اللهم منزل الكتاب . سريع الحساب اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وزلزلهم[2] .

وإنّ رحمة الله تعالى للمؤمنين تجلّت فى نصر الله تعالى لهم دون أيّ مجهود من قبلهم . وإنّ رحمة الله تعالى للكافرين تجلت فى عدم استئصالهم على غرار ما حلّ بعاد قوم هود عليه السلام . ومّما يعتبر مظهرا من مظاهر رحمة الله تعالى بالقوم الكافرين ، لوجود المصطفى ﷺ بين ظهرانيهم ، وكونهم قومه الّذين لم يرد ربّ العزّة استئصالهم ولكن أن ينسأهم فى الأجل ، ويوسع لهم فى الأمل ، لعلّهم يرعوون إلى الصراط المستقيم ، ما جاء فى سورة الأنفال فى هذا الشأن . قال تعالى[3] : ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . وما لهم ألاّ يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلاّ المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ . "بغيظهم" أى مغيظين ، فهو حال للمصاحبة ولم ينالوا حال ثانية أو من الضمير بغيظهم فيكون حالاً متداخلة[4] ولم ينل الكافرون خيراً فى دنياهم وأخراهم . إنّهم فى الدّنيا لم ينالوا خيراً ممّا تمنوا أن ينالوا من الانتصار على المؤمنين ، واستئصال الإسلام من جذوره والظفر بالغنائم والأسرى . وإنّهم فى الآخرة لهم عذاب النّار وبئس القرار .

وإنّ القول﴿ وكفى الله المؤمنين القتال﴾ يعتبر مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، لأنّ كفاية الله تعالى المؤمنين من قتال كفّار مكّة ليس مقصوراً على غزوة

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧٧/٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٧/٣ .
(٣) سورة الأنفال ٣٣ ، ٣٤ .
(٤) البحر المحيط ٢٢٤/٧ وانظر الكشاف ٥٣٥/٢ .

الخندق ، بل إلى الأبد . ونحن بطبيعة الحال على علم بصلح الحديبية وبفتح مكّة .
وإنّ المصطفى ﷺ ، الذى لا ينطق عن الهوى ، عبّر بلسانه الشّريف ، عن فحوى هذه المعجزة القرآنية . فقد قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ، كما جاء فى صحيح البخارى[1] : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » قال محمّد بن إسحاق : لمّا انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم . فلم تغز قريش بعد ذلك . وكان رسول الله ﷺ هو يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله تعالى مكّة . وهذا الحديث الّذى ذكره محمّد بن إسحاق حديث صحيح كما قال الإمام أحمد[2] .

عن عبد الرّحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال : حُبِسْنا يوم الخندق عن الصّلاة فلم نصل الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء. حتّى كان بعد العشاء بهوى[3] كفينا وأنزل الله : وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزا . فأمر رسول الله ﷺ بلالا فأقام الصّلاة وصلّى الظّهر ، فأحسن صلاتها ، كما كان يصليها فى وقتها . ثمّ صلّى العصر كذلك . ثمّ صلّى المغرب كذلك . ثمّ صلّى العشاء كذلك . جعل لكلّ صلاة إقامة . وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا[4] « قتادة : وكان الله قوياً عزيزا . قويّاً فى أمره عزيزاً فى نقمته »[5] : قال تعالى : ﴿ **وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويّاً عزيزا** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٧٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٧٧ .
(٣) يقال : معنى هوى (بفتح الهاء) أو هوى (بضمّ الهاء) من الليل أى هزيع أو قسم منه .
(٤) تفسير الطّبرى ٢١ / ٩٤ وصلاة الخوف فى الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة النساء . وقوله تعالى « فإن خفتم فرجالا أوركبانا » من الآية ٢٣٩ من سورة البقرة
(٥) تفسير الطبرى ٢١ / ٩٥ .

(٩)

انتقام الله تعالى من يهود بنى قريظة الغادرين

الآيتان ٢٦ ــ ٢٧

هاتان هما الآيتان الكريمتان المتعلّقتان بغدر يهود بنى قريظة الغادرين وانتقام الله تعالى منهم . قال عزّ من قائل : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كلّ شىء قديرا** ﴾.

حديثنا عن الآيتين الكريمتين ذو شقّين أوّلهما دراسة الآيتين الكريمتين . وثانيهما الوقوف مليا عند غدر بنى قريظة وانتقام الله تعالى منهم ، فى هيئة معاملة النبى ﷺ جزاء نقضهم للعهود والمواثيق ، بقصد أخذ الدّروس والعبر للإفادة منها فى الوقوف على حقيقة نوايا اليهود تجاه المسلمين ، ولمعرفة الطّريقة الناجعة الّتى تمّ بها بإرادة الله تعالى ، استئصال القوم ، وقد قال تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾.

فمع الشق الأوّل من الحديث « أ » دراسة الآيتين الكريمتين .

لقد لاحظنا بشأن الآيتين الكريمتين السّابقتين أن ربّ العزّة هو الّذى يجزى الصّادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . وهو الّذى ردّ الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وهو الّذى كفى المؤمنين القتال ، وإنّ الشىء نفسه نتبينه بشأن ما حلّ بيهود بنى قريظة . إنّ الله سبحانه وتعالى ، هو الّذى أنزلهم

من صياصيهم ، أى حصونهم وهو الّذى قذف فى قلوبهم الرّعب ، وهو الّذى أورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم يطأها المؤمنون ، هى أرض خيبر فى رأى فريق من العلماء ، وأرض مكّة فى رأى فريق آخر من العلماء .

وقد بيّنت الآية الكريمة الأولى السّبب فى إنزال الله تعالى يهود بنى قريظة من صياصيهم وانتقامه منهم . قال تعالى : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ إنّهم ظاهروا الّذين كفروا ، قريشا وأحابيشها وغطفان وأتباعها على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ . وما معنى مظاهرة يهود بنى قريظة للكافرين الّذين جاءوا من أجل استئصال شأفة الإسلام والمسلمين ، إثر الجرح الّذى آلموا به المؤمنين فى أحد . وكيف يظاهر يهود بنى قريظة أيّ فئة كانت ضدّ المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، وإن بين الفريقين عهد الله وميثاقه . وأقلّ متطلبات ذلك العهد ألاّ يعينوا على المؤمنين عدّوا ؟ وهل يعرف اليهود معنى العهود والمواثيق وقد قال الله تعالى عنهم وعن أمثالهم فى سورة الأنفال[1] : ﴿ **إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الّذين كفروا فهم لا يؤمنون . الّذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** ﴾ وحينما تنصّ الآية الكريمة على السّبب فى إنزال الله تعالى يهود بنى قريظة من حصونهم ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم** ﴾ نكون بصدد شهادة من العلىّ القدير بأنّ هذه الفئة من اليهود ، نقضت عهد الله وميثاقه ، فاستحقّت بسبب هذه الخيانة العظمى أن ينتقم الله تعالى منها ، وأن يسلّط عليها المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، وأن يكون هؤلاء المؤمنون وسيلة انتقام الله تعالى مِنْ هؤلاء العابثين بالعهود والمواثيق .

والحقيقة أنّ جريمة بنى قريظة كبرى ، وخيانتهم عظمى ، ليس فقط من أجل نقضهم عهد الله تعالى وميثاقه مع المؤمنين ، ولكن لأنّهم بهذه الخيانة العظمى قد خانوا الله تعالى وخانوا رسوله وخانوا أماناتهم.وإنّهم إضافة إلى نقضهم للعهد هم يحالفون الّذين كفروا ضدّ الرّسول الّذى يعرفونه كما يعرفون آباءهم ، والّذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة . وهم إذا كانوا من قبل قد جاء عنهم قوله تعالى[2] : ﴿ **ولما**

---

(١) الآية ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ٨٩ .

جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ وجاء عنهم قوله تعالى[1] : ﴿ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلا . أولئك الّذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا . أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون النّاس نقيرا . أم يحسدون النّاس على ماآتاهم الله من فضله.فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه . وكفى بجهنم سعيراً﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ما يودّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وقوله تعالى[3] :﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحقّ فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى الله بأمره إنّ الله على كل شيء قدير﴾وقوله تعالى[4] : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتّى تتّبع ملتهم قل إنّ هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىّ ولا نصير﴾ إنّه إذا كان قد جاء عن القوم ومن لف لفهم تلك الآيات الكريمات ، وهى غيض من فيض ، فإن يهود بنى قريظة يحالفون الكفّار ضد رسول الله تعالى وضد أمّة التوحيد . هذه هى الطّامّة الكبرى والبليّة العظمى . ولم يجرؤ هؤلاء الجبناء على نقض العهد إلاّ لكونهم واثقين من أن نهاية الإسلام قد بدت طلائعها فأرادوا أن يكون لهم شرف الإسهام فى وضع تلك النهاية له . ولكنّ الله تعالى كان للقوم بالمرصاد . والله غالب على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون[5] فهؤلاء الكفّار قد ردّهم الله تعالى بغيظهم . وهؤلاء اليهود النّاكثون للعهود والمواثيق قد أنزلهم الله تعالى من صياصيهم . ونحن حينما نتبين أنّ الكافرين إنّما ردّهم الله تعالى بجنوده الّتى لم يرها

---

(١) سورة النساء ٥١ - ٥٥ .
(٢) سورة البقرة ١٠٥ .
(٣) سورة البقرة ١٠٩ .
(٤) سورة البقرة ١٢٠ .
(٥) سورة يوسف ٢١ .

المؤمنون فضلاً عمّن سواهم ، وقوام هذه الجنود الرّيح والملائكة ، وأنّ كافرى أهل الكتاب إخوانهم إنّما أنزلهم الله تعالى بواسطة المؤمنين الّذين أراد اليهود استئصال شأفتهم ، ندرك بعض فضل الله تعالى على هؤلاء المؤمنين ، الّذين شفى الله تعالى قلوبهم مما تجد على اليهود فى إنزالهم بواسطة المؤمنين أنفسهم من حصونهم وقذف الرّعب فى قلوبهم ، وقتل بعضهم وأسر البعض الآخر ، والاستيلاء على أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، إضافة إلى أرض أخرى لم تطأها أقدام المسلمين ولا خيولهم من قبل ، هى أرض خيبر أو مكّة .

وحينما يسند إنزال يهود بنى قريظة من حصونهم إلى الذّات العليّة دليلاً على المدى البعيد لانتقام الله تعالى منهم ، لا نملك إلاّ أن نستذكر المناسبة الأخرى الّتى أنزل الله تعالى فيها الانتقام ذاته ، على فئة أخرى من هذا الجنس ذاته من النّاكثين للعهود والمواثيق . أمّا هذه المناسبة فهى الّتى نزل فيها فى سورة الحشر أو سورة بنى النضير انتقاما منه جلّ وعلا من بنى النضير آيات كريمات . ونودّ أن نلفت الانتباه إلى اسم الضمير المنفصل « هو » العائد إلى الذات العلية والّذى تصدر به أولى الآيات الكريمات . قال تعالى[1] : ﴿ **هو الّذى أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرّعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذّبهم فى الدّنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنّهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾.

لقد أنزل ربّ العزّة كافرى أهل الكتاب الّذين ظاهروا المشركين من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فتمكن المسلمون بفضل الله تعالى من قتل فريق وأسر فريق : « وقذف الرّعب سبب لإنزالهم ولكنه قدم المسبَّب . لما كان السرور بإنزالهم أكثر ، والإخبار به أهمّ »[2] .

ويلاحظ بشأن إنزال الله تعالى يهود بنى قريظة . إضافة إلى كون الإنزال انتقاما منه جلّ وعلا ، أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة الصياصى بمعنى الحصون . ممّا هو

(١) سورة الحشر ٢ ، ٤ .
(٢) البحر المحيط ٢٢٤/٧ .

دليل سماوى على أنّ هؤلاء الجبناء أحقر من أن يجرءوا على مواجهة الرّجال فى ميادين القتال وجهاً لوجه . وهذا دليلٌ نجد الواقع لا ينطق إلاّ به . وقد جاء فى جبن اليهود واحتمائهم بالحصون وتفكيرهم فى وسائل الدّفاع قبل أى شىء آخر فى سورة الحشر أو سورة بنى النضير قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعا إلاّ فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ وتأمّل وراء ذلك انتقاء الآية الكريمة لفظة صياصى وهى جمع صيصية ، بكسر الصّاد الأولى بعدها ياء ساكنة فصاد مكسورة فياء مفتوحة ، بدلا من لفظة الحصون ، دليلا على اعتماد القوم عليها اعتمادا كبيرا وعلى السلاح ، بأكثر من اعتمادهم على الكفاءة القتالية والشجاعة والرّجولة . إنّ التفوق فى السلاح وفى وسائل الدّفاع ، ومنها الكتلة العددية هى الّتى يتم عليها الاعتماد فى المقام الأوّل ، فى حالة غياب الإيمان فى كل زمان ومكان . وهذه هى عادة اليهود ، بل هذه هى طبيعتهم الّتى لا يعرفون غيرها . وفى سبيل تبيين معنى لفظة صياصى فى الآية الكريمة ، نحن نودّ أن نقتبس أحسن نصّ أمكن لنا أن نقف عليه فى بابه . إنّه ماكتبه فى الحيوان أمير البيان العربى ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . يقول فى أحد الفصول الّتى عقدها فى الحيوان حول بعض خصائص الدّيك[2] : « وفى الدّيك الجولان وهو ضرب من الرّوغان . وجنس من تدبير الحرب . وفيه الثقافة والتسديد[3] وذلك أنّه يقدر إيقاع صيصيته بعين الدّيك الآخر ويتقرب إلى المذبح فلا يخطىء .

وهم يعجبون من الجزّار ، ويضربون به المثل إذا كان لا يخطىء اللّبّة . ومنْ اللّحّام إذا كان لا يخطىء المفصل . ولذلك قالوا فى المثل : يطبّق المحز[4] ولا يخطىء المفصل . وهذا القول يذمّون به ويمدحون . والدّيك فى ذلك أعجب . وله مع الطعنة سُرْعةُ الوثبة ، والارتفاع فى الهواء . وسلاحه طرير[5] وفى موضع عجيب . وليس ذلك إلاّ له . وبه سمى قرن الثور صيصية . ثمّ سمّوا الآطام[6] التى كانت بالمدينة

---

(١) الآية ١٤ .

(٢) الحيوان ٢/٢٣٤ .

(٣) الثقافة : الحذق . والتسديد : صدق الإصابة .

(٤) المحز موضع الحزّ مثل المقصل موضع القصل .

(٥) سلاح طرير : محدد ماض .

(٦) الآطام جمع أطم بضم وبضمّتين وهو الحصن يبنى من الحجارة . ومن العلماء من ذهب =

للامتناع بها من الأعداء صياصى . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم** ﴾ والعرب تسمى الدّارع[1] وذا الجنّة صاحب سلاح . فلما كان اسم السلاح الدّيك وما يمتنع به صيصيه ، سمّوا قرن الثور الّذى يجرح صيصية . وعلى أنّه يشبه فى صورته بصيصية الدّيك ، وإن كان أعظم . ثم لما وجدوا تلك الاطام معاقلهم وحصونهم وجنتهم ، وكانت فى مجرى الترس والدّرع والبيضة ، أجروها[2] مجْرى السلاح ، ثم سمّوها صياصى . ثمّ أسموا شوكة الحائك الّتى بها تهيأ السداة واللحمة[3] صيصية إذ كانت مشبّهة بها فى الصورة ، وإن كانت أطول شيئاً . ولأنّها مانعة من فساد الحوك والغزل . ولأنها فى يده كالسلاح ، متى شاء أن يجأ به إنساناً وجأه[4] به . وقال دريد بن الصّمّة :

نظرت إليه والرّماح تنوشه كوقع الصّياصى فى النسيج الممدّد

وبيت دريد فى سرعة وقع الرّماح وتداركه . وهو من مقطوعة يرثى بها أخاه عبد الله «ابن الصمة» وجاء فى السيرة النبوية[5] والصّياصى أيضاً الّتى تكون فى أرجل الدّبكة ناتئة كأنها القرون الصّغار والصياصى أيضاً الأصول .

وبهذا تتبين المراحل الّتى مرتّ بها اللفظة . ابتداءً بصيصية الدّيك إلى الحصن أو الأطم .

وبتدبرنا للقول : « وأنزل » يتبين حرص هؤلاء اليهود على أن يكونوا فى الأمكنة من الحصون الّتى تعتبر آمنها وأبعدها عن الخصوم وأكثرها قُرْبا من المثل المعروف : اضرب واهرب » إنّهم يكونون فى أعلى الأماكن من الحصون . لهذا استخدمت الآية الكريمة جملة : « وأنزل » دليلا على تلك الأماكن العالية الّتى ظن اليهود كعادتهم أنّها تحميهم . إنّها إذا كانت تحميهم من عباد الله تعالى ، فإنّها أعجز من أن تحميهم من

– إلى كون الأطم يبنى من حجارة صغار بينها حشو بينما الحصن يبنى من حجارة ضخام لا حشو بينها إضافة إلى ضخامة الحصن واتجاه شكله نحو التربيع .

(١) الدّارع لابس الدّرع وهو القميص الحديدى . والجنة ما يلبسه المرء أو يحمله ليقى نفسه .

(٢) فى الأصل أجروهما ولعل الصحيح أجروها .

(٣) اللحمة بضم اللام ما نسج من الثوب عرضا وهو خلاف سداة بفتح السين .

(٤) وجأه : ضربه وطعنه .

(٥) ٣/٢٧٠ (عبد الحميد) .

بطش الله تعالى . وبتدبرنا كذلك للقول ﴿ الّذين ظاهروهم ﴾ دليلا على معاونة اليهود للكافرين إخوانهم ، يتبين أنّها أقوى الألفاظ دلالة على عظم الدّعم وقوة العون اللذين قدمهما اليهود للكفارين ، معنويا ومادّيّاً ، لأنّ هذا التعبير ذو علاقة بالظهر . والمعروف أنّ أقوى أجزاء الجسم عظمه وأقوى أجزاء عظم الجسم فقار الظهر . ودليلا على قوة المساعدة الّتى قدّمها اليهود للكافرين ، تستعمل الآية الكريمة اللفظة ذات العلاقة بهذا الجزء القوى من الإنسان . وتشاء العناية الإلهية أن يتمكن الخوف من قلوب اليهود . بل أن يسيطر عليها الرّعب . وحينما نتبين أنّ لفظة الرّعب فى القرآن الكريم لا تستعمل مطلقاًفى حقّ المؤمنين إنّما تُستَعْمل فى حقّ غير المسلمين ، كما هو الحال فى سورة آل عمران والأنفال والأحزاب والحشر ، أو فى حقّ مطلق الإنسان ، وذلك فى قوله تعالى من سورة الكهف[1] : ﴿ **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا** ﴾ وحينما نتبين أنّ هذه اللفظة استعملت مرّتين فى حقّ اليهود من المرّات الخمس الّتى جاءت فى القرآن الكريم ، ندرك المدى العجيب للخوف الّذى تمكن من أعداء الله تعالى : ﴿ ومن يهن الله فماله من مُكْرِم ﴾[2] وهاتان هما المرّتان اللتان تستعملان فى حق يهود بنى النضير أوّلا . قال تعالى[3] : ﴿ **هو الّذى أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرّعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ وفى حق يهود بنى قريظة ثانيا . قال تعالى[4] : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ . وهاتان هما المرّتان اللتان تستعملان فى حقّ كفار مكّة على جهة الخصوص قال تعالى[5] : ﴿ **سنلقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين** ﴾ وقال تعالى[6] :

---

(١) الآية ١٨ .
(٢) سورة الحج ١٨ .
(٣) سورة الحشر ٢ .
(٤) سورة الأحزاب ٢٦ .
(٥) سورة آل عمران ١٥١ .
(٦) سورة الأنفال ١٢ .

﴿ سألقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان ﴾ .

ولعّلنا تبينا أنّ صيغة التعبير بشأن اليهود فى الموضعين واحدة : وقذف فى قلوبهم الرّعب،فنحن بصدد جملة : « قذف » الّتى يرتبط بها نوع من العنف والسرعة . ثمّ إنّ الصيغة جاءت فى الزّمن الماضى . بينما تجىء فى الموضعين بشأن الكافرين فى صيغة الزّمن المضارع الّذى سبقه حرف السّين الدّال على المستقبل القريب . ومعروف أن بنى قريظة ، بعد أن حاصرهم المصطفى ﷺ ، خمسا وعشرين ليلة تقريبا[1] وقذف الله تعالى فى قلوبهم الرّعب ، رفضوا أن ينزلوا على حكمه ﷺ[2] وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، سيد الأوس وحليف بنى قريظة فى الجاهلية ، الّذى ظنوا أنّه سيعاملهم على غرار معاملة رأس النفاق ، عبد الله بن أبى ابن سلول ، لحلفائه فى الجاهلية يهود بنى قينقاع ، بعد أن نزلوا على حكمه ﷺ ، بأن طلب منه عليه الصّلاة والسلام أن يمنحهم إليه ، وأن يحسن فى مواليه ، بمعنى حلفائه فى الجاهلية[3] لأنّه ، وهو الأعمى البصيرة يخشى النّوائر على حدّ قوله وغفل هؤلاء عن كون سعد بن معاذ أحد المؤمنين الّذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه . هذا إلى أنّه قد أصابه سهم فى أكحله فى غزوة الأحزاب الّتى خان اليهود فيها الله تعالى ورسوله ، فكواه رسول الله ﷺ فى أكحله ، وأنزله فى قبّة فى المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد رضى الله عنه فيما دعا ربّه : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها . ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة . فاستجاب الله دعاءه ، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم .. فقال رضى الله عنه : إنّى أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة[4] : « قال الإمام أحمد .. عن عطيّة القرظى قال : عرضت على النبى ﷺ يوم قريظة فشكوا فى فأمر النبى ﷺ أن

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧٨/٣ والبحر المحيط ٢٢٤/٧ .

(٢) انظر الكشاف ٥٣٥/٢ .

(٣) السيرة النبوية ٤٢٨/٢ (عبد الحميد) .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٨/٣ .

ينظروا هل أنبتّ بعد ، فنظروني فلم يجدوني أنبتّ ، فخلى عنّى وألحقنى بالسبى . وهكذا رواه أهل السّنن كلّهم »[1] ويقال : تأسرون وتأسرون ، بكسر السين وضمها ، حكاه الفرّاء[2] ويقول القرطبى[3] : فريقا تقتلون وهم الرّجال « وتأسرون فريقا » وهم النّساء والذّرية قال ابن إسحاق : فلما انقضى شأن بنى قريظة ، انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيدا[4] قال تعالى : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ .

ونتحوّل إلى الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ **وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا** ﴾ إنّ الآية الكريمة تستعمل جملة « أورث » والمعروف أنّ لفظة الميراث إنّما تستعمل فى حقّ ما يورث بعد الوفاة . فالله سبحانه وتعالى هو الّذى مكّن للمسلمين بأن يرثوا الغادرين من بنى قريظة ، وبما أنّ فريقا منهم لم يُقتل إنّما أسر . وبما أنّ الميراث إنّما استعمل فى حقّ الجميع ، فذلك دليل على أنّ الأحياء منهم ، لهوانهم على الله تعالى ، بسبب إعراضهم عن الحقّ ، قد نزّلتهم الآية الكريمة منزلة الأموات سكّان القبور . وقد قدّم السّياق الأرض . وأورثكم أرضهم بسبب المنفعة الكبرى المرتبطة بها ، خاصة وأنّها أرض زراعية.والمعروف أنّ اليهود عموماً ، استطاعوا أن يستولوا على أحسن أراضى يثرب الزّراعية . والمراد بالدّيار المساكن . والمراد بالأموال ما سوى الأرض والدّور[5] وأمّا الأرض الّتى لم يطأها المسلمون فالمراد بذلك أرض خيبر فى أقوال . والمعروف أنّها لليهود ، فهم من جنس الفئات الّتى انتقم الله تعالى منها من سكّان تلك المنطقة . هذا بالإضافة إلى أنّ اليهود قد وعدوا بإعطاء غطفان ثمر خيبر لعام واحد ، مقابل خروجها مع قريش . وقيل : إنّما المراد بالأرض أرض مكّة[6] وقيل غير ذلك[7] : قال

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧٨/٣ .
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٤٤ وانظر الكشاف ٥٣٦/٢ .
(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٤٣ .
(٤) السيرة النبوية ٢٧١/٣ (عبد الحميد) .
(٥) انظر تفسير الطبرى ٩٨/٢١ .
(٦) انظر تفسير الطبرى ٩٩/٢١ والسّيرة النبوية ٢٧١/٣ (عبد الحميد) .
(٧) انظر البحر المحيط ٢٢٥/٧ .

ابن إسحاق : ثمّ إنّ رسول الله ﷺ قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين . وأعلم فى ذلك اليوم سُهْمان الخيل وسُهْمان الرّجال . وأخرج منها الخمس . فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ولفارسه سهم وللرّاجل من ليس له فرس ،سهم وكانت الخيل يوم بنى قريظة ستة وثلاثين فرسا . وكان أوّل فىء وقعت فيه السهمان وأخرج منه الخمس . فعلى سنتها وما مضى من رسول الله ﷺ فيها وقعت المقاسم ، ومضت السّنّة فى المغازى[1] وقد ختمت الآية الكريمة بهذا التذييل الدّال على مطلق القدرة الإلهية : ﴿ **وكان الله على كلّ شىء قديرا** ﴾ فالله سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وما أهون عليه جلّ وعلا تلك الحصون الّتى يتحصّن بها يهود بنى قريظة الخائنون لله تعالى ولرسوله الكريم ﷺ . قال القرطبى[2] : « وكان الله على كل شىء قديرا فيه وجهان أحدهما على ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير . قاله محمّد بن إسحاق . الثّانى على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقرى قدير قاله النقاش

قال تعالى : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شىء قديرا** ﴾.

ونتحوّل مستعينين الله تعالى إلى الشق الثّانى من الحديث وعنوانه غدر بنى قريظة ومعاملة النبى ﷺ لهم .

(ب) غدر بنى قريظة ومعاملة النبى ﷺ لهم

فئات ثلاث مناوئة للإسلام

إذا نظرنا إلى الفئات المناوئة للإسلام فى فجره والتى انتصر عليها انتصارا ساحقا استطعنا أن نتبين أنّها ثلاث فئات :

الكافرون الّذين يعتبر كفّار مكّة من قريش رمزاً لهم .

المنافقون الّذين كانت المدينة المنوّرة مسرحا لنشاطهم .

اليهود الّذين كانت المدينة المنوّرة وما حولها مسرحاً لنشاطهم .

---

(١) السّيرة النبوية ٣/٢٦٤ (عبد الحميد) .

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٤٣ .

وفى ضوء إحساس كلّ من هذه الفئات الثلاث بضعف المسلمين أو قوّتهم ، تعمل منفردة أو متحالفة . أمّا حينما تكون النيّة مبيّتة لاستئصال الإسلام من جذوره ، والقضاء على المسلمين بالكلية ، فإنّ هذا الهدف قادر على توحيد هذه الفئات صفا واحد . ومن الأحداث الخطيرة فى تاريخ الإسلام ،الّتى اتّحد فيها هذا العدوّ الثلاثى الشرس الماكر ، موقعة الأحزاب أو الخندق الّتى كانت سنة أربع من الهجرة أو سنة خمس .

ونحن نستطيع أن نتبيّن من مواقف خصوم الإسلام المختلفة المتنوّعة ، قوّة الإسلام المضطردة النماء . إنّ الإسلام حينما كان أوّل الأمر غريبا أو كالغريب ، كانت قريش تبطش بالمسلمين دون أن تُحس فى نفسها الحاجة للاستعانة بآخرين . واستمرّت الحال كذلك ، حتىّ كانت الهجرة النبوية الشريفة ، إلى المدينة المنوّرة ، وكانت موقعة بدر الكبرى التى نصر الله تعالى فيها المسلمين وهم أذلّة ، نصرا مؤزّرا ، على قريش ، بخيلها وخيلائها وكثرة رجالها وعتادها . وهذه الهزيمة النكراء من قبل قريش جعلتها تقبل بشىء غير قليل من الارتياح مبدأ التحالف مع الآخرين ، رغم كونها من قبل لا تميل إلى ذلك ، لأنّه دليل على الضعف والاعتراف به[1] والّذى جعل قريشا تغيّر موقفها ، هو أنّها أرادت أن تستعجل القضاء على الإسلام ، هدفها الّذى أيقنت أنّها عاجزة عن الوصول إليه بمفردها[2] وقد تجلّى فى موقعة الأحزاب ، رضا قريش عن مبدأ التحالف مع الآخرين ، رغم ما يعنيه ذلك من دلالة على أنّ جمرتها قد انطفأت[3] فإنّها هى وأحابيشها قد حالفت كلّ خصوم الإسلام ، الظّاهرين والمستترين ، الكافرين أمثالها ، وهؤلاء يتمثلون فى غطفان ، واليهود ، المعروفين بعدائهم الدّفين للإسلام والمسلمين ، رغم العهد الّذى أخذ على اليهود بأن يكونوا مع المسلمين يداً واحدة . وهؤلاء اليهود لهم إخوانهم الّذين يتفقون معهم فى بغض

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٦٧٧/١ حينما أفسد أبو جهل بعد عودته من سفر تحالف قريش مع الأوس ضد الخزرج . وانظر وفاء الوفاء ٢٩٦/١

(٢) انظر هنا السّيرة النبوية ٥٠٤/٣ (عبد الحميد) وكيف استعانت قريش من أجل موقعة أحد بأحابيشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة وهى التى رفضت من قبل أن تحالف فى الجاهلية الأوس أو الخزرج .

(٣) انظر هنا مثلا اللسان والقاموس « جمر »

الإسلام . ولكنّ الإسلام كان قد قهرهم ، وهم المنافقون .

والمعروف أنّ هذا الفئات الثلاث ، بنصّ القرآن الكريم ، إخوان فى الكفر ، وفى الشرور والآثام . جاء فى سورة الحشر ، فى تقرير أخوّة المنافقين لليهود قوله تعالى[1] : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد إنّهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثمّ لا ينصرون** ﴾ وجاء فى سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام ، فى تقرير أخوّة المنافقين للكافرين الّذين سبق حديث السّورة الكريمة عنهم ، قوله تعالى[2] : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك ، حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا . أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ والمعروف أن سورة محمّدعليه الصّلاة والسّلام ، تتحدّث فى مواطن كثيرة منها عن هذين الفريقين ، الكافرين والمنافقين . بل إنّها ابتدأت بقوله تعالى : ﴿ **الّذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم** ﴾ إنّ كفّار مكّة قد عرفوا الحقّ فأنكروه كبرا وغطرسة . فهؤلاء قد أظهرو الكفر . وإنّ المنافقين قد عرفوا الحقّ الّذى غلبهم وقهرهم ، فأظهروا اتّباعه وأبطنوا اجتنابه . فهؤلاء قد أبطنوا الكفر . وإنّ اليهود قد عرفوا الحقّ الّذى نصّت عليه التّوراة ، ومع ذلك هم جحدوه وكفروا به علانية[3] فهؤلاء قد أظهروا الكفر محتجين بأنّهم أهل كتاب سماوى وأنهم – إلاّ من رحم ربّك ، وقليل مّاهم لن يتركوا حكم التوراة ! والمعروف أنّ التّوراة تأمرهم باتّباع الرّسول النبى الأمّىّ الّذين يجدون صفته جلية فى كتبهم المقدّسة .

والقرآن الكريم يُلحق فى سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام المنافقين بالكافرين ، لأنّهم فى حقيقة الأمر امتداد للكافرين جوهرا ، وإن اختلفوا ظاهرا . وتفسير ذلك أنّ ظهور كل من الكافرين والمنافقين على التّوالى هو الأمر الطّبيعّى ، لأنّ وجود الكفر ظاهرا ، يعنى إيناس الكافرين القدرة فى أنفسهم والضّعف فى خصمهم . وتلك

---

(١) سورة الحشر ١١ ، ١٢ .

(٢) سورة محمد ١٦ .

(٣) انظر المعانى المختلفة للكفر فى لسان العرب « كفر » .

كانت حال المسلمين فى فجر الإسلام . ولأنّ وجود النّفاق ظاهرا ، يعنى إحساس الكافرين بالعجز وقهر الإسلام لهم . وتلك كانت حال الإسلام بعد الهجرة . وبهذا يتبين أنّ ظهور كلّ من الكفر فى مكّة أوّلا ، والنّفاق فى المدينة آخرا ، أمرٌ طبيعى حقّا ، وقادرٌ على اتخاذه مقياساً دقيقاً لقوة الإسلام المضطردة النماء ، وضعف الكفر المستمرّ الخفاء . إنّ كفّار مكّة الحانقين على الإسلام ، كانوا قادرين ساعة الغضب ، على أن يترجموا احمرار أوجههم ، دليل إيناسهم القدرة فى أنفسهم على العمل ، إلى بطش بخصومهم . أو إلى محاولة البطش فمعاودة الكرّة ساعة الفشل فى إحدى الجولات . وقد تجلّى كل ذلك فى الفترات السّابقة على غزوة الخندق أو الأحزاب ، والّتى انتهت بقوله ﷺ ، وقد ردّ الله تعالى الأحزاب الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيرا : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم[1] يقول ابن هشام[2] : « ولمّا انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنى : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنّكم تغزونهم . فلم تغزهم قريش بعد ذلك . وكان هو الّذى يغزوها حتّى فتح الله تعالى عليه مكّة » .

أمّا المنافقون وهم الّذين كفرت قلوبهم ، ومع ذلك هم يتظاهرون بالإسلام ، فقد قهرهم الإسلام ، وسدّعليهم المسلمون كلّ منافذ الفعل ، وكادت تلحق بها منافذ القول . إنّهم كانوا يغالبون ألسنتهم الّتى تأبى غالبا إلاّ أن تسبق إلى إبداء ما يكتمون ، وإعلان ما يسرّون . أمّا العمل ، فقد كانوا عاجزين عن أن يجاهروا بأى عمل ضدّ الإسلام . وبما أنّ هواهم أن يعملوا ضدّ الإسلام ، ولكنهم مقهورو الإرادة ، فإنّهم حينما يطلب إليهم أن يعملوا شيئاً فى صالح الإسلام ، فإنهّم فى حالة كون العمل غير ذى الشوكة ، يتباطأون ويتثاقلون وقد يفرّون . وعلى سبيل المثال ، أشار القرآن الكريم إلى هذا الفريق حينما يلوذ بالفرار من العمل فى حفر الخندق أو يتعلل بالأعذار الواهية ، بينما المسلمون المؤمنون المتقون يستأذنون لحاجاتهم الضرورية ، ويعودون توّا إلى مواقعهم[3] جاء فى سورة النّور[4] قوله تعالى : ﴿ إنّما

---

(١) صحيح البخارى ١٤١/٥ .

(٢) السيرة النبوية ٢٧٤/٣ (عبد الحميد) .

(٣) السّيرة النّبوية ٢٣١/٣ (عبد الحميد) وانظر لباب النقول ص ١٦٢ .

(٤) الآية ٦٢ ، ٦٣ .

المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتّى يستأذنوه ، إنّ الّذين يستأذنونك أولئك الّذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إنّ الله غفور رحيم•لا تجعلوا دعاء الرّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . قد يعلم الله الّذين يتسلّلون منكم لواذا ، فليحذر الّذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ وجاء فى سورة الأحزاب[1] قوله تعالى : ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إنّ بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، إن يريدون إلاّ فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثمّ سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلاّ يسيرا﴾.

أمّا إذا كان العمل الّذى يطلب من المنافقين أن يقوموا به ذا شوكة ، وله علاقة بالكرّ والفرّ ، ومجالدة الأقران ، فإنّ الحقد على الإسلام الكامن فى نفوسهم المريضة ، يتجلى فى امتقاع ألوانهم المتّجهة نحو الصفرة ، ودوران أعينهم ، دليلا على الخوف والهلع والجزع . إنّ قهر الإسلام المستمر لهم ، جعل ألوان أوجههم كأنفسهم غير النقية ولا الصّافية ، بل العليلة المريضة . وحينما يطلب منهم عملٌ ذو علاقة بالحرب ، فإنّ مجرّد ذكر القتال ، يثير فى نفوسهم كامن الخوف الشّديد من الموت ، بسبب حبّهم الشّديد للدّنيا . وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى من سورة الأحزاب[2] : ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلاّ قليلا . أشحّة عليكم•فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذى يغشى عليه من الموت . فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا﴾ وجاء فى سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[3] قوله تعالى : ﴿ويقول الّذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعة وقولٌ

---

(١) الآية ١٣ ، ١٤

(٢) الآية ١٨ ، ١٩

(٣) الآية ٢٠ ، ٢١

معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾.

ونحن إذا نظرنا إلى الفئة الثالثة ، اليهود الّذين يضمرون للإسلام كلّ عداوة استطعنا أن نتبين أنّ طبيعة علاقتهم بالمسلمين تتشكّل وتتلوّن وفق إحساسهم بضعف المسلمين أو قوتهم ، وكما استطعنا أن نتّخذ من علاقة كلّ من الكافرين والمنافقين بالمسلمين مقياساً لقوّة الإسلام المضطردة النماء ، نستطيع ابتداءً ، أن نفعل سريعا الشيء ذاته بشأن يهود تلك المنطقة آنذاك .

إنّه على الرّغم من كون يهود المدينة المنوّرة قد دخلوا جميعاً فى العهد الّذى أخذه عليهم المصطفى ﷺ ، بأن يدافعوا مع المسلمين عن المدينة إن دهمها عدوّ ، فإنّ يهود بنى قينقاع ، أولى الجماعات اليهودية الّتى تحرّشت بالمسلمين . وإذا كنا نلاحظ أنّ بنى قينقاع ، حينما جمعهم المصطفى ﷺ بالسّوق ، بعد موقعة بدر ، وكلمهم منذرا ومحذرا ، كان فى كلامهم شيء غير قليل من الاعتداد بالنفس والثقة بها ، فلا يعود ذلك فى اعتقادى إلاّ إلى طبيعة إحساس القوم بكون المسلمين لمّا يستكملوا قوتهم بعد ، وأنّ فى إمكانهم ، لو دخلوا مع المسلمين فى قتال أن يفعلوا شيئاً . بدليل أنّنا لو قارنا بين كلام هؤلاء المغرورين المخدوعين عن حقائق أقدارهم ، وبين الكلام المتأخر زمنا ، والصّادر من إخوانهم فى العقيدة ، لتبينا أنّ طريقة بنى قينقاع فى الحديث فريدة فى بابها ، ولا يستغرب مثل ذلك من الغر غير المجرب أو المحنّك . ولو أنّنا قارنّا بين موقف بنى قينقاع ، أولى الجماعات اليهودية الّتى اصطدمت بالمسلمين ، وبين موقف أهل فدك مثلا ، الّذين راعهم ما حلّ بيهود خيبر ، لتبينا من الموقفين المتباينين ، لأولى الجماعات اليهودية وآخرها ، المقياس الدّقيق لقوّة المسلمين المضطردة النّماء . وإليك هذا النصّ من السّيرة النبوية الّذى يشير إلى موقف يهود بنى قينقاع ، أولى الجماعات اليهودية الّتى نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وهى الّتى حاربت بين بدر وأحد[1] يقول ابن هشام[2] : « وكان من حديث بنى قينقاع أنّ رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بنى قينقاع ثمّ قال : يا معشر يهود . احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنّى نبى مُرْسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله إليكم . قالوا :

---

(١) السّيرة النبوية ٢ /٤٢٧ (عبد الحميد) .

(٢) السّيرة النبوية ٢/٤٢٦ (عبد الحميد) وانظر لباب النقول ص ٥١ .

يا محمّد ، إنّك ترى أنّا قومُك . لا يغرّنّك أنّك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنّا والله لئن حاربناك لتعملنّ أنّا نحن النّاس » وأنّك لم تلق مثلنا . فأنزل الله : ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إنّ فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾[1] .

وإليك فى المقابل هذا النصّ من السّيرة النبوية الّذى يصوّر الرعب الّذى تمكن من آخر معقل من معاقل اليهود فى تلك الأنحاء ، وهم أهل فدك ، ممّا يُعْتَبَرُ مقياسا دقيقا ، ودليلا أكيدا ، على قوّة الإسلام : قال ابن إسحاق : فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من خيبر ، قذف الله الرّعب فى قلوب أهل فدك – حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر – فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النّصف من فدك . فقدمت عليه رسلهم بخيبر أو بالطريق أو بعد ما قدم المدينة ، فقبل ذلك منهم . فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة ، لأنّه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب[2] .

وبعد هذه النّظرة الأولى السّريعة إلى الفئات الثّلاث المناوئة للإسلام ، من زاوية مواقفها المختلفة من الإسلام ، وانهزامها المستمرّ أمامه ، دليلا أكيداً ومقياساً دقيقا لقوّة الإسلام المضطردة النّماء ، نوّد أن نلقى نظرة ثانية إلى اليهود فى الجزيرة العربية صدر الإسلام ، وإلى إصرارهم على العداوة للإسلام والمسلمين ، حتّى انتهى الأمر باجلائهم نهائيا سنة عشرين من الهجرة على يد الخليفة الثّانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه[3] بسبب اعتداءات اليهود المتكرّرة على المسلمين[4] وفشوّ الفواحش بينهم .وبسبب قوله ﷺ فى مرض موته : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان . وهذه النظرة الثّانية ذات شقين . الشق الأوّل ينظر إلى يهود تلك المنطقة جميعا . والشق

---

(١) لباب النقول ص ٥١ والسيرة النبوية ٤٢٦/٢ والآيتان الكريمتان من سورة آل عمران ١٢ ، ١٣ وقد أكملناهما .

(٢) السيرة النبوية ٤٠٨/٣ (عبد الحميد) .

(٣) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٥٦٩/٢ و ٥٧٠ وفى هذه السّنة العشرين من الهجرة ، أجلى عمر رضى الله تعالى عنه يهود نجران إلى الكوفة ص ٥٦٩ .

(٤) ابن الأثير ٥٧٠/١ .

الثّانى ينظر إلى بنى قريظة على وجه الخصوص ، باعتبارهم محور هذه الدّراسة ، من زاوية غدرهم ومعاملة النبى ﷺ لهم . ويرتبط بذلك نظرات أخرى جانبيّة .

يهود المنطقة

قبل الإسلام ، كان يسكن يثرب المدينة المنوّرة ، التى كانت تعرف آنذاك باسم يثرب[1] جماعات من اليهود . وكان يسكن يثرب على وجه الخصوص ثلاث فئات : الأوس والخزرج واليهود . وبدراستنا لتاريخ هذه الفئات قبل الإسلام ، نستطيع أن نفهم أنّ حياتهم كان يشوبها الصراع والقتال . ولو أننا ألقينا نظرة فاحصة على كتاب الكامل فى التّاريخ لابن الأثير ، لاستطعنا أن نتبين سلسلة من الحروب الّتى كان يحياها الأوس والخزرج على وجه الخصوص . وقد سجل ابن الأثير فى تاريخه ، سلسلة من تلك الحروب الّتى تبدأ بيوم سُمَير وتنتهى بيوم بُعاث[2] ويوم بعاث كان آخر حروب الأوس والخزرج الّتى وضع الإسلام نهاية لها[3] والملاحظ أنّ اليهود كان لهم دور بارز فى نشوب هذه الحروب بين الأوس والخزرج ، عن طريق إشعال العداوات بين الحيين ، ومدّهما بالسّلاح ، بحكم اتّجاه اليهود إلى الصّناعة ، صناعة السلاح على وجه الخصوص[4] وكان هؤلاء اليهود أحياناً ، يشكّلون فى هذه الحروب أطرافا للنزاع . ومن بطونهم من كان حليفا تقليديا للأوس كبنى قريظة والنضير[5] ومنهم من كان حليفا تقليديا للخزرج كبنى قينقاع[6] على أنّ الأوس والخزرج كانوا الضحايا الحقيقيين لتلك السلسلة الّتى لا تكاد تنقطع من الحروب ، والتى كانت ستستمر لولا الإسلام الّذى وضع لها حدّاً إلى الأبد ، وجعل التنافس بين الحيين يحل محلّ العداوة ، والتآلف بين القلوب يحلّ محلّ البغضاء. وفى إمكاننا أن نعرف إلى أى مدى بلغ العداء بين هذين الحيين ، الأوس والخزرج ، حينما نتبين أنّ المصطفى ﷺ ،

---

(١) معجم البلدان (مدينة يثرب » و « يثرب » .

(٢) الكامل لابن الأثير ٦٥٨/١ - ٦٨٤ وسمير بضمّ السّين فى هيئة التصغير وبعاث بضم الباء وعين مهملة وآخره ثاء مثلثة .

(٣) انظر الكامل لابن الأثير ٦٨٠/١ والسّيرة النبوية ٣٦/٢ (عبد الحميد) .

(٤) انظر وفاء الوفا ١٩٨/١ طبعة القاهرة ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ والشعر والغناء فى المدينة ومكة د . شوقى ضيف ص ١١ .

(٥) الكامل لابن الأثير ٦٨٠/١ و ٦٧٨ .

(٦) انظر السيرة النبوية ٢٥٧/٣ (عبد الحميد) .

حينما بعث مصعب بن عمير الدّارىّ بعد بيعة العقبة الأولى[1] كى يُقْرىء أهل المدينة القرآن الكريم ، ويعلّمهم الإسلام . ويفقههم فى الدّين[2] كان الأوس ، حينما يحين وقت الصّلاة يرفضون أن يؤمّهم خزرجى ، والخزرج يرفضون أن يؤمّهم أوسىّ ، ويرضون جميعاً بمصعب بن عمير إماما[3] .

ومما أن اليهود لم يكن فى مصلحتهم الوفاق والوئام بين الحيين ، لأنهم كانوا يعيشون على الخلاف بينهما ، فقد كانوا حريصين على أن يثيروا الشكوك والخلافات فى صفوف المسلمين ، حلفائهم فى الجاهلية بصفة خاصة . أخرج ابن جرير وابن إسحاق عن ابن عبّاس قال : كان رجالٌ من المسلمين يواصلون رجالا من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية . فأنزل الله فيهم ، ينهاهم عن مباطنتهم تخوّف الفتنة عليهم : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّواماعنتمّ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾[4] وأخرج ابن إسحاق وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : مرّ شاس بن قيس وكان يهوديا على نفر من الأوس والخزرج يتحدّثون ، فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة ، فأمر شاباً معه من يهود أن يجلس بينهم فيذكرهم يوم بعاث ففعل فتنازعوا وتفاخروا حتّى وثب رجلان أوس بن قيظى من الأوس وجبار بن صخر من الخزرج فتقاولا وغضب الفريقان وتوثبوا للقتال . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم ، فسمعوا وأطاعوا ، فأنزل الله فى أوس وجبار ومن كان معهما : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الّذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾[5] وفى شاس بن قيس : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون** ﴾[6] إلى غير ذلك من الأعمال الّتى تدلّ على

---

(١) السّيرة النبوية ٤٢/٢ (عبد الحميد) .
(٢) السّيرة النبوية ٤٢/٢ (عبد الحميد) .
(٣) السّيرة النبوية ٤٢/٢ (عبد الحميد) .
(٤) لباب النقول ص ٥٦ والآية الكريمة من سورة آل عمران رقم ١١٨ .
(٥) لباب النقول ص ٥٦ والآية الكريمة من سورة آل عمران رقم ١٠٠ .
(٦) لباب النقول ص ٥٦ والآية الكريمة من سورة آل عمران ٩٩ .

سوء طوية القوم وتربصهم بالمسلمين الدّوائر . وقد أشار القرآن الكريم فى الكثير من المواضع إلى كلّ ذلك . والعجيب فى أمر هؤلاء اليهود أنّهم كانوا قبل بعثة المصطفى ﷺ يستفتحون[1] على الأوس والخزرج ويقولون لهم إنّ الوقت الّذى سيبعث فيه النبى المنتظر قد حان ، وإنهم أى اليهود سيبادرون إلى اتّباعه والقضاء على خصومه . وتشاء العناية الإلهية أن يبعث المصطفى ﷺ من العرب وليس من اليهود ، وأن يبادر الأوس والخزرج ، الّذين لقبهم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بالأنصار ، إلى اتّباع المصطفى ﷺ ، وأن يعرض اليهود ويتمادوا فى الإعراض والصّدّ عن سبيل الله تعالى . وحينما يذكّرهم الأنصار بقولهم السّابق فى الجاهلية ، عن النبى المنتظر يقولون بأنّ محمّدا ﷺ ، ليس هو الّذى كنّا نحدّثكم عن قرب مبعثه . فقال سلام ابن مشكم أحد بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالّذى كنّا نذكره لكم . وقد أنزل الله فى ذلك من قولهم[2] : **ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**[3] .

على أنّ أوّل الأعمال الجماعيّة اليهودية الّتى تجلّى فيها العداء السّافر للإسلام والمسلمين ، كان فى موقف بنى قينقاع الّذين أبدوا سخريتهم العلانية ، واستزاءهم المرير بقريش الّتى انهزمت فى موقعة بدر أمام المسلمين بسبب جهلها بأساليب القتال وجبنها عن ورود حياض الرّدى . جاء فى السيرة النبوية[4] « وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بنى قينقاع ثمّ قال : يا معشر يهود : احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنّكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم . قالوا : يا محمدّ ، إنّك ترى أنّا قومك ، لا يغرنك أنّك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنّا والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس» .

قال ابن إسحاق : فحدّثنى مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عن

---

(١) يستفتحون : يستنصرون ، يقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث آخر الزمان .

(٢) سورة البقرة ٨٩ .

(٣) السّيرة النبوية ٥٤٧/١ (حلبى) .

(٤) ٤٢٦/٢ (عبد الحميد) .

عكرمة عن ابن عبّاس قال : ما نزل هؤلاء الآيات إلاّ فيهم : ﴿ **قل للّذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنّم وبئس المهاد . قد كانَ لكم ايةٌ فى فئتين التقتا** ﴾ (أى أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ وقريش) ﴿ **فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيّد بنصره من يشاء إنّ فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾[1] .

وبسبب نقض بنى قينقاع ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، ورغبتهم فى شيوع الفاحشة وحربهم للمسلمين ، حاصرهم المصطفى ﷺ خمس عشرة ليلة[2] حتّى نزلوا على حكمه . وقد وهبهم ﷺ لحليفهم فى الجاهلية رأس المنافقين ، عبد الله بن أبى ابن سلول [3].

وإنّ ثانى الأعمال الجماعيّة اليهودية الّتى تجلّى فيها العداء السّافر للإسلام والمسلمين ، موقف بنى النضير العدائى من المصطفى ﷺ . فقد أرادوا أن يغدروا به ﷺ حينما خرج إليهم فى سنة أربع يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر للجوار الّذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما[4] وقد أطلعه الله تعالى على نواياهم فحاصرهم المصطفى ﷺ فى شهر ربيع الأوّل ستّ ليال[5] حتّى جهدهم الحصار فنزلوا على حكمه على أن تحقن دماؤهم ويخرجوا حاملين على الإبل ما استطاعوا من أموالهم إلاّ السلاح . وبذلك تخلص المسلمون من إحدى الجماعات المعادية . والمعروف أنّ سورة الحشر أو سورة بنى النضير نزلت كاملة فى هذه المناسبة . وكانت غزوة بنى النضير ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر[6] .

وإنّ ثالث الأعمال الجماعيّة اليهودية الّتى تجلى فيها العداء للإسلام والمسلمين نقض بنى قريظة للعهود والمواثيق ، وعملهم على ضرب المسلمين فى غزوة الخندق من الخلف . وهؤلاء هم محور حديثنا فى هذه الدّراسة ، وسنخصصهم بعون الله تعالى

---

(١) الآيتان الكريمتان ١٢ ، ١٣ من سورة آل عمران .
(٢) انظر السّيرة النبوية ٤٢٨/٢ (عبد الحميد) .
(٣) انظر السّيرة النبوية ٤٢٨/٢ (عبد الحميد) .
(٤) السّيرة النبوية ١٩٠/٢ (حلبى) .
(٥) السّيرة النبوية ١٩١/٢ (حلبى) .
(٦) لباب النقول ص ٢٠٨ .

بالحديث فى الشق الثانى من النظرة الثانية .

وإذا كان بنو قريظة يمثّلون آخر المعاقل الحصينة لليهود فى تلك الأنحاء فإنّ المصطفى ﷺ ، مالبث أن توجه إلى خيبر وحصونها ، وهى الّتى وعدت غطفان بثمارها سنة واحدة ، مقابل انضمامها إلى جيش الأحزاب ، لاستئصال الإسلام والمسلمين[1] وقد بادر يهود فدك إلى الطّلب منه ﷺ أن يعاملهم كما عامل يهود خيبر . وكان ﷺ قد أذن ليهود خيبر أن يبقوا على شروط معينة منها أنّ المسلمين إذا شاءوا أن يخرجوا اليهود أخرجوهم[2] وقد ثبت لعمر رضى الله تعالى عنه أنّ النبى ﷺ أوصى فى مرض موته بألاّ يُترك بجزيرة العرب دينان . جاء فى السّيرة النّبويّة[3] : « ثمّ بلغ عمر أنّ رسول الله ﷺ قال فى وجعه الّذى قبضه الله فيه : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان . ففحص عمر عن ذلك حتّى بلغه الثّبت فأرسل إلى يهود فقال : إنّ الله عزّ وجلّ قد أذن فى جلائكم فقد بلغنى أنّ رسول الله ﷺ قال : لا يجتمعنّ بجزيرة العرب دينان . فمن كان عنده عهدٌ من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتنى به ، أُنفِذْه له ، ومن لم يكن عنده عهدٌ من رسول الله ﷺ من اليهود فليتجهز للجلاء . فأجلى عمر من لم يكن عنده عهدٌ من رسول الله ﷺ منهم » .

فأقامت يهود على ذلك (فى خيبر وغيرها) ، لا يرى بهم المسلمون بأسا فى معاملتهم . وقد عدوا فى عهد رسول الله ﷺ على عبد الله بن سهل أخى بنى حارثة ، الذى أصيب بخيبر . وكان خرج إليها فى أصحاب له يمتار منها تمرا . فوجد فى عين قد كسرت عنقه ثمّ طرح فيها[4] .

ولما استمر اليهود على عهد عمر رضى الله تعالى عنه فى إيذاء المسلمين ، فقد أزالو مفاصل يد عبد الله بن عمر من مواضعها ، نتيجة اعتداء أهل خيبر عليه تحت الليل وهو نائم على فراشه[5] هذا إلى أنّ الزّنا قد فشافيهم ، قرّر إجلاءهم جميعا . وكان إخراج عمر رضى الله عنه ليهود خيبر سنة عشرين للهجرة . وكذلك يهود

---

(١) هامش فى ظلال القرآن ص ٢٨٣٤ نقلا عن امتاع الأسماع للمقريزى .

(٢) انظر صحيح البخارى ١٣١/٩ وقوله ﷺ لليهود : إنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض .

(٣) ٤١٢/٣ (عبد الحميد) .

(٤) السّيرة النبوية ٤٠٩/٣ ، ٤١٠ (عبد الحميد) .

(٥) السّيرة النبوية ٤١٢/٣ (عبد الحميد) .

نجران[1] .

وتتحوّل الآن إلى الشقّ الثانى من النظرة الثّانية ، وهو خاص بغدر بنى قريظة ومعاملة النبى ﷺ لهم .

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير حوادث سنة عشرين للهجرة ٢/٥٦٩ ، ٥٧٠ .

غدر بنى قريظة

إذا تساءلنا عن المحرّض لقريش وغطفان وحلفائهما على أن يهاجموا المدينة المنوّرة فى جيش ضخم ، لم تعهد العرب مثله من قبل ، قوامه عشرة آلاف مقاتل ، يكون الجواب : إنّهم اليهود الّذين نقضوا عهدهم مع المصطفى ﷺ بألاّ يعينوا على المسلمين عدوّا ، وألاّ يعينوا قريشا ، بل إنّ عليهم أن يدفعوا عن المدينة المنوّرة إن هاجمها عدوّ . ولهم ما للمسلمين ، بما فى ذلك حظّهم من الغنائم ، وعليهم ما على المسلمين . وإليك هذه النّصوص المقتبسة من الوثيقة الّتى كتبها المصطفى ﷺ بعد الهجرة مباشرة ، بين سكّان المدينة المنوّرة ، من المسلمين وهم المهاجرون والأنصار الأوس والخزرج ، وبين اليهود . جاء فى السيرة النبوية[1] : « وإنّه من تبعنا من يهود فإنّ له النّصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .. وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامُوا محاربين ، وإنّ يهود بنى عوف ، أمّة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلاّ من ظلم وأثم فإنّه لا يوتغ[2] إلاّ نفسه وأهل بيته » وقد أعطى النبى ﷺ البطون الأخرى من اليهود الحقوق ذاتها[3] حيث سمّاها بطنا بطنا . كما أنّ عليهم جميعا الواجبات الّتى على المسلمين . فقد جاء فى الكتاب[4] « وإنّ بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمّد ﷺ .. وإنّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وإنّ بينهم النّصح والنّصيحة والبرّ دون الإثم . وإنّه لم

---

(١) السّيرة النبوية ١٢١/٢ (عبد الحميد) .
(٢) لا يوتغ : لايهلك .
(٣) انظر السّيرة النبوية ١٢٢/٢ (عبد الحميد) .
(٤) السّيرة النبوية ١٢٢/٢ (عبد الحميد) .

يأثم امرؤ بحليفه . وإنّ النّصر للمظلوم . وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .. وإنّه لا تجار قريش ولا من نصرها . وإن بينهم النّصر على من دهم يثرب .. وإنّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم ،على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن[1] من أهل هذه الصحيفة]إلى آخر الحقوق والواجبات الّتى تضمنها الكتاب الّذى كتبه المصطفى ﷺ فى المدينة بعد الهجرة مباشرة .

إنّ اليهود بدلا من أن يدافعوا عن المدينة المنوّرة ، هم يغرون خصوم الإسلام بسكّان المدينة من المسلمين ، المهاجرين والأنصار . وإنهم بدلا من أن يطبقوا تعاليم الصحيفة ، وبخاصة ما يتصل منها بقريش خصم المسلمين الألدّ ، وذلك فى القول : « وإنّه لا تجار قريش ولا من نصرها . وإنّ بينهم النّصر على من دهم يثرب » هم الّذين يذهبون إلى قريش ومن نصرها ، كى يدهموا يثرب ، ويستأصلوا شأفة المسلمين ، ويجتثوا الإسلام من جذوره .

وكى نتبين شيئاً من المشقة الّتى كابدها المسلمون ، لتمثل ذلك الخندق الضخم الّذى حفروه بإيحاء من سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه ، واستحسان من المصطفى ﷺ والّذى كان طوله حوالى خمسة آلاف ذراع . وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة . والعرض من تسعة إلى مافوقها[2] حيث كان من نصيب كلّ عشرة أفراد من الجيش الّذى لا يزيد عدده عن ثلاثة آلاف مقاتل أربعون ذراعا[3] . وهذا الخندق يمتد جنوب جبل سلع . وفى شكل شبه نصف الدّائرة[4] بين الحرّتين الشرقية حرّة واقم ، والغربية حرّة الوبرة ، حيث إنّ هذه المنطقة السّهلية الشمالية، هى الجهة من المدينة المنوّرة غير الحصينة ، من الوجهة الطبيعية ، فاحتاجت إلى تحصين بعينه . وقد تمثل ذلك فى الخندق . أمّا الجهات الأخرى فقد كانت بطبعها حصينة ، حيث توجد فى الشّرق والغرب حرّتان تعوقان حركة أى جيش نظامى ، وتلحق بكلّ منهما حرّة صغرى . وفى الجنوب توجد المزارع والبساتين الّتى تعتمد النخيل أساساً . وبذلك يتعذر اختراق جيش نظامى لهذه الجهة أيضاً . وكلّ ذلك

---

(١) تحقيق السّقا طبع حلبى « المحض » بدلا من الحسن .

(٢) السّيرة النبوية للندوى ص ٢٠٠ نقلاً عن غزوة الأحزاب للأستاذ أحمد باشميل .

(٣) السّيرة النبوية للندوى ص ٢٠٠ .

(٤) انظر آثار المدينة المنورة للأستاذ عبد القدوس الأنصارى ص ١٥٨ .

معناه أنّ المدينة المنوّرة حصينة بطبعها من الجهات الثلاث الشّرقية والغربيّة والجنوبيّة . وليس كذلك الشّمالية . وهى الّتى جاء من ناحيتها جيش أحد أوّلا وجيش الأحزاب ثانيا .

وكى نتبين الخوف الّذى استبد بالمسلمين، ليس بسبب العدوّ الخارجى فحسب ، وإنّما بسبب العدوّ الدّاخلى الّذى يقع داخل الحدود الطبيعية الّتى تحمى المدينة المنورة من الجهات الثلاث ، والتى أكملت حمايتها بحفر الخندق ، ذلك العدوّ الّذى نقض عهده مع المسلمين وهم بنو قريظة ، فى إمكاننا أن نتدبّر قوله تعالى من سورة الأحزاب[1] : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ والّذين جاءوا المسلمين من فوقهم، فى رأى ابن هشام ، هم يهود بنى قريظة ناكثى العهد مع المسلمين[2] والّذين جاءوا المسلمين من أسفلهم هم قريش وغطفان وحلفاؤهما[3] . وقد صوّرت أم المؤمنين أمّ سلمة رضى الله عنها ذلك الخوف فيما روى عنها قالت رضى الله عنها[4] : شهدت معه (ﷺ) مشاهد فيها قتال وخوف . المريسيع ، وخيبر ، وكنّا بالحديبية وفى الفتح وحنين ، لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق . وذلك أنّ المسلمين كانوا فى مثل الحرجة[5] وأنّ قريظة لانأمنها على الذّرارى . فالمدينة تحرس حتّى الصّباح . نسمع فيها تكبير المسلمين حتّى يصبحوا خوفا ، حتى ردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا .

وإليك هذا النّصّ من السّيرة النبوية الّذى يصور مدى الشدّة الّتى كان فيها المسلمون[6] : وصلى رسول الله ﷺ هويّا[7] من الليل ثمّ انتفت إلينا فقال : من

---

(١) الآية ١٠ ، ١١ والمعروف أن الآيات ٩ - ٢٧ من السّورة تتحدّث عن الأحزاب وبنى قريظة .

(٢) السّيرة النبوية ٣/٢٦٥ (عبد الحميد) وسبق أن بينا رأينا فى هذه المسألة .

(٣) السّيرة النبوية ٣/٢٦٥ (عبد الحميد) .

(٤) تفسير فى ظلال القرآن ٢٨٣٤ هامش (٢) .

(٥) الحرج محركة ، المكان الضيق الكثير الشجر كالحرج ككتف. والحرج جمع الحرجة لمجمع الشجر انظر القاموس « حرج » وعليه فالحرجة تعنى كذلك المكان الضيق الكثير الشجر . وهكذا كان حال المسلمين فى غزوة الخندق .

(٦) السيرة النبوية ٣/٢٥١ (عبد الحميد) .

(٧) الهوى بفتح الهاء أوضمها وكسر الواو وتشديد الياء : الجزء من الليل والقطعة منه .

رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمّ يرجع ، يشرط له رسول الله ﷺ الرّجعة ، أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنّة . فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدّة الجوع وشدّة البرد . فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله ﷺ[1] فلم يكن لىّ بد من القيام حين دعانى فقال : يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا »

فهذا الجيش الّذى قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، لا يقوى فيه رجل واحد ، بسبب الخوف والجوع والبرد ، على أن يتطوع للقيام بما أرداه المصطفى ﷺ ، رغم اشتراطه لهذا المتطوّع العودة سالما وأن يكون بإرادة الله تعالى رفيقه ﷺ فى الجنّة .

وممّا عمّق من متاعب المسلمين كون النفاق قد ظهر جليا من المنافقين الّذين اعتادوا من قبل الإخفاء . يقول ابن هشام[2] : « وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتّى ظن المؤمنون كلّ ظنّ . ونجم النفاق من بعض المنافقين حتّى قال معتّب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمدٌ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » وإلى هؤلاء المنافقين أشارت سورة الأحزاب فى مثل قوله تعالى[3] : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا** ﴾ وإلى مظاهرة بنى قريظة لقريش وغطفان وحلفائهما أشار قوله تعالى[4] : ﴿ **وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ .

هدف بنى قريظة من الغدر

إنّ يهود بنى قريظة إنّما خانوا المسلمين وغدروا بهم ونقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، بقصد استئصال المسلمين ، ولا شك أنّ لذلك الغدر أبعاده الخطيرة حقا مستقبلا ، لأن جزيرة العرب كلّها ، الّتى كان يقدّر عدد سكّانها آنذاك خمسة

---

(١) هو حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه .
(٢) السّيرة النبوية ٢٣٨/٣ (عبد الحميد) .
(٣) الآية ١٢ .
(٤) سورة الأحزاب ٢٦ .

ملايين شخص ، كانت ترقب بدقة ما يجرى بين المسلمين من ناحية ، ويلاحظ أنّ عددهم آنذاك ثلاثة آلاف جندى سلاحهم الأكبر هو الإيمان وبين خصومهم من ناحية أخرى ، الّذين كانوا يفوقون المسلمين آنذاك عدداً وعدّة . إنّ أىّ أذى ينال – لا سمح الله تعالى – المسلمين ، سيكون بمثابة الإغراء لسكّان الجزيرة العربية بأن يميلوا على المسلمين ميلة واحدة بقصد استئصال البقية الباقية منهم ، إن كان ثمّة بقية ، إذ ليس بخاف أنّ هدف كفّار مكّة وغطفان واليهود والمنافقين ، هو استئصال المسلمين . ومن حقّنا أن نتمثل المسلمين – لا سمح الله تعالى – قد انهزموا فى موقعة الأحزاب . فمن ذا الذى سيسمح له بالبقاء على قيد الحياة منهم ، خاصة وقد عرفنا ما فُعِل بالمسلمين بميدان المعركة فى أحد . والمعروف أنّه كان لدىّ قريش بعد انتصارها مباشرة فى أحد الرغبة الأكيدة فى أن تعاود الكرّة على المدينة المنوّرة ، هذه المرّة ، كى تستأصل المسلمين من جذورهم ، ولكنّ الله تعالى سلّم . وفى إمكاننا أن نمعن النّظر فى هذا النّصّ من السيرة النبوية ، كى نتبين أن بنى قريظة ما نقضوا العهد إلاّ لثقتهم بأن المسلمين سينهزمون شرّ هزيمة أمام قريش وغطفان ، على غرار هزيمتهم السّابقة فى أحد ، وأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، فأرادوا أن يكون لهم شرف المشاركة فى إبادة المسلمين والقضاء على الإسلام . يحدث كلّ ذلك رغم اعترافهم بوفاء المصطفى ﷺ ووفاء أصحابه . إنّ حيّى بن أخطب النضرى ، محزب الأحزاب ضد رسول الله ﷺ وضدّ المسلمين ، بعد أن تمكن من دخول أطم بنى قريظة ، خاطب رئيسهم كعب بن أسد القرظىّ ، محرّضا له على نقض العهد ووضع يده فى يد قريش وغطفان قائلا[1] : « ويحك يا كعب . جئتك بعز الدّهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتّى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة . وبغطفان على قادتها وسادتها حتّى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألاّ يبرحوا حتى نستأصل محمّدا ومن معه » .

ونودّ أن ننتبه لهذا التعبير : حتّى نستأصل محمّدا ومن معه،فاليهود حريصون على أن يكونوا شركاء قريش وغطفان فى استئصال الإسلام والمسلمين . وحتّى حينما هزم ربّ العزّة الأحزاب وحده ، وحاصر المصطفى ﷺ بنى قريظة ، وأيقنوا أنّه عليه

(١) السيرة النبوية ٢٣٦/٣ (عبد الحميد) .

الصلاة والسلام غير منصرف عن مناجزتهم ، كان أحد الاقتراحات الثلاثة لكعب ابن أسد ،زعيم بنى قريظة ، أن يحاربوا المسلمين وجهاً لوجه . والاقتراح الآخر أن يباغتوا المسلمين ليلة السَّبت الّتى يعرف بنو قريظة أنّ المسلمين يأمنونهم فيها ، فربّما أصاب بنو قريظة ، حسب ظن زعيمهم من المسلمين غِرّة[1] إنّ ربّ العزّة قد قذف الرّعب فى قلوب القوم ، ولكن نية العدوان والانتقام موجودة دائماً ، ورغم اعتراف كعب بن أسد القرظى أكثر مرّة فى تلك المناسبة الّتى يخاطب حيى بن أخطب بأنّه لم ير منه ﷺ إلاّ وفاء وصدقا فقد نجح حيىّ فى حمل كعب على أن ينقض عهده مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد أن أعطى حيىّ لكعب بن أسد عهدا وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمّدا ، أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك . فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء ممّا كان بينه وبين رسول الله ﷺ[2] .

ومضيًا فى هذه الخطة الجائرة الخسيسة أحضرت قريظة الصحيفة الّتى كتب فيها الميثاق فمزقتها[3] وبدأوا بالفعل فى الاستعداد للهجوم على المسلمين . وهكذا حاولوا طعن جيش المسلمين من الخلف . وكان ذلك أشدّ وأنكى من الهجوم السّافر والحرب فى الميدان . وذلك قوله تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ واشتدّ ذلك على المسلمين حتّى قال سعد بن معاذ وكان من أولى النّاس بالحدب عليهم ، يحنو عليهم فى كلّ ما يلمّ بهم ، لمّا أصابه السّهم فى غزوة الخندق فقطع منه الأكحل وأيقن بالموت : اللهم لا تمتنى حتّى تقرّ عينى من بنى قريظة[4] .

وبقدر ما كانت خيانة بنى قريظة عامل هدم لمعنويات المسلمين ، كانت فى المقابل عامل بناء وتقوية لمعنويات الكافرين والمنافقين ، الكافرين على وجه الخصوص الّذين ذاقوا من قبل حلاوة الانتصار فى أحد ، فأرادوا أن يعززوا الانتصار السّابق ، رغم أنّهم قد أخذوا ثأر بدر . ولكنهم ، الآن ، تحت تحريض اليهود وعونهم ، أرادوا أن يستأصلوا المسلمين من جذورهم . وحرصاً من المصطفى ﷺ ، على بقاء

---

(١) انظر السيرة النبوية ٢٥٤/٣ (عبد الحميد) .
(٢) السّيرة النبوية ٢٣٥/٣ - ٢٣٧ .
(٣) فقه السيرة للغزالى ٣٢٤ .
(٤) السّيرة النبوية للندوى ص ٢١٠ .

الرّوح المعنوية للمسلمين عالية ، وقد بلغته الأنباء السيّئة عن غدر بنى قريظة ، أراد أن يتثبت من الأمر كى يتصرف وكى يأخذ حذره من العدوّ الداخلى ، إن ثبتت خيانته ، إذ معنى هذا أنّه يعدّ العدّة للوثوب طاعنا من الخلف . وإليك هذا النّصّ من السّيرة النبوية الذى يصوّر المدى العجيب لحقد اليهود على الإسلام ، الّذى اعتقدوا أنّ طلائع نهايته قد ظهرت على يد جيوش الأحزاب وإصرارهم على نقض العهود والمواثيق ، والهدف اللئيم الّذى يحرصون على الوصول إليه[1] : فنقض كعب بن أسد عهده وبرىء ممّا كان بينه وبين رسول الله ﷺ .

فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين ، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان – وهو يومئذ سيّد الأوس – وسعد بن عبادة بن دليم أحد بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج – وهو يومئذ سيّد الخزرج – ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بنى الحارث بن الخزرج وخوّات بن جبير أخو بنى عمرو بن عوف فقال : انطلقوا حتّى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا . فإن كان حقّاً فالحنوا لى لحنا أعرفه[2] ولا تفتوا فى أعضاد النّاس[3] وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للنّاس . قال : فخرجوا حتّى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم . نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمّد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه. وكان رجلاً فيه حدّة . فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أرى من المشاتمة[4] ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثمّ قالوا : عضل والقارة ، أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرّجيع ، خبيب وأصحابه . فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

وعظم عند ذلك البلاء ، واشتدّ الخوف ، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتّى ظنّ المؤمنون كلّ ظنّ ، ونجم النّفاق من بعض المنافقين »

وبعد أن ردّ الله تعالى الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، كان الحقد المتمكن

---

(١) السيرة النبوية ٣/٢٣٧ (عبد الحميد) .

(٢) اللحن : أن يخالف ظاهر الكلام معناه الحقيقى .

(٣) يقال : فت فى عضده إذا ضعفه وأوهنه .

(٤) أرى من المشاتمة : أعظم وأكبر .

من قلوب بنى قريظة على الإسلام والمسلمين قد أعماهم حتّى عن مجرّد التورّع عن قول الكلام غير الطيّب فيه ﷺ . جاء فى السّيرة النبوية[1] : « وقدّم رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب ، رضوان الله عليه ، برايته إلى بنى قريظة ، وابتدرها النّاس . فسار علىّ بن أبى طالب ، حتّى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ . فرجع حتّى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال : يا رسول الله : لا عليك ألاّ تدنوا من هؤلاء الأخابث قال : لم ؟ أظنّك سمعت منهم لى أذى قال : نعم يا رسول الله . قال : لورأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً » .

---

(١) ٢٥٢/٣ (عبد الحميد) .